

سُورَةُ الْمَسَدِ

حِينَ تَسْقُطُ يَدُ الْعَدَاوَةِ وَلَا يُغْنِي الْمَالُ عَنِ الْمَصِيرِ

تأليف: رَدَّاد السَّلَامِي

سُورَةُ الْمَسَدِ

حِينَ تَسْقُطُ يَدُ الْعَدَاوَةِ وَلَا يُغْنِي الْمَالُ عَنِ الْمَصِيرِ

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة المنهجية

ليست سورة المسد حكايةً مقتضبةً عن رجلٍ مضى وامرأةٍ طواهما الموت، وليست قصاصاً تاريخياً من خصمٍ وقف في وجه الدعوة ثم انتهى أمره؛ إنها سورة تكشف قانوناً من قوانين الصراع بين الحق والباطل، وتفضح البنية الداخلية للعداوة حين تستولي على الإنسان حتى يحول قرابته، وماله، ومكانته، وبيته، وزواجه، ولسانه، ويديه إلى أدواتٍ في مقاومة النور. لقد نزلت في أبي لهب وامراته، ولكنها لم تُحبس في زمنهما؛ لأن القرآن حين يذكر شخصاً بعينه لا يكتفي بتسجيل مصيره، بل يكشف من خلاله نموذجاً بشرياً قابلاً للتكرار، ويرينا كيف يصنع الإنسان هلاكه بيديه، وكيف قد تتحول النعم التي كان ينتظر منها الحماية إلى شهودٍ عليه، وكيف يصبح البيت الذي كان ينبغي أن يكون موضع سكونٍ وتعاونٍ على الخير ورشةً مشتركةً لإنتاج الأذى.

وسنمضي في تدبر هذه السورة من ظاهر ألفاظها وسياقها ونظمها إلى ما تفتحه من آفاقٍ في النفس والحياة، من غير أن نتزعها من سبب نزولها، أو نحمل عباراتها رموزاً بعيدة لا يحتملها البيان القرآني. فالتدبر الصحيح لا يلغي التفسير، بل ينطلق منه، ولا يقفز فوق المعنى الأول، بل يستضيء به ليبصر امتداداته. وسنقرأ أبا لهب أولاً بوصفه ذلك الرجل القرشي المعروف الذي جاهر بعداوة النبي ﷺ، ثم نقرأ من خلاله مأساة الإنسان الذي يرى الحق قريباً منه، ويعرف صاحبه، ويشهد أمانته، ثم يختار أن يجعل قربه وسيلةً أشدَّ للإيذاء. وسنقرأ امرأته بوصفها شريكاً حقيقيةً في هذا الطريق، ثم نتأمل كيف قد يفقد الزواج معناه الرحماني حين يتحول إلى تحالفٍ على الإثم والعدوان.

إن سورة المسد، على قصرها، تنقلنا في خمس آيات من اليد إلى المال، ومن المال إلى النار، ومن النار إلى المرأة، ومن المرأة إلى الحبل؛ وكأنها ترسم سلسلةً كاملةً لانهيار الإنسان: تبدأ بما يفعله، ثم بما يملكه، ثم بما يصير إليه، ثم بمن يعينه، ثم بالقييد الذي يلتف حوله. اليد تعمل، والمال يُجمع، والنار تنتظر، والشريكة

تحمل، والحبل يشتد؛ فلا كلمة زائدة، ولا صورة منعزلة، بل بناءً محكم تتعاقب فيه الأسباب والنتائج حتى يبدو المصير في آخر السورة كأنه الثمرة الطبيعية لما امتلأت به الحياة في أولها.

وقد افتتحت السورة بالحكم قبل أن تذكر تفاصيل الجريمة؛ لأن القضية قد انتهت في ميزان الله، وإن كان صاحبها ما يزال يتحرك بين الناس. وهذا من أعمق ما تهبه السورة للقلب المؤمن: أن الباطل قد يبدو قائماً في الحس بعد أن يكون قد سقط في الحقيقة، وأن صاحبه قد يمشي في الأسواق، ويجمع المال، ويستند إلى النسب، ويحيط نفسه بالأعوان، بينما يكون حكم الله قد صدر فيه، وتكون النهاية قد بدأت قبل أن تراها العيون. ليس كل قائمٍ ثابتاً، ولا كل قويٍّ ناجياً، ولا كل ممتلكٍ غنياً؛ فقد يملك الإنسان كثيراً، ثم لا يجد في ساعة الحقيقة شيئاً مما يملك.

وهنا يجيء الفرق الهائل بين المقاييس الأرضية وميزان الوحي. في مقاييس الناس كان أبو لهب رجلاً من بيتٍ رفيع النسب، ذا مالٍ ومكانة، قريباً من محمد ﷺ قرابة الدم؛ وفي ميزان الوحي لم يبق من تلك الأوصاف كلها إلا يدان خائبتان، ومالٌ عاجز،

ولهبٌ ينتظر، وامرأة تحمل أسباب العذاب، وحبلٌ من مسد. لقد أسقط القرآن الزينة التي كان المجتمع يكسو بها الرجل، ثم أراه عارياً أمام عمله ومصيره؛ لأن الإنسان عند الله لا يوزن بما يحيط به، بل بما يسكن فيه ويصدر عنه.

ولذلك فإن السورة تهدم وهماً قديماً متجدداً: وهم أن القرب من أهل الفضل يمنح صاحبه فضلاً لم يعمل له، أو أن الانتساب إلى بيت النبوة يمكن أن يعوض عن الإيمان، أو أن التاريخ العائلي يستطيع أن يفاوض عن الإنسان أمام الله. كان أبو لهب عم النبي ﷺ، ولكن القرابة التي لم تفتح القلب للحق لم تمنع عنه حكم الحق؛ فالأنساب في الدنيا أسباب تعارفٍ وتراحم، لكنها لا تتحول في الآخرة إلى حصانةٍ ضد العدل. وقد يكون المرء قريباً بجسده بعيداً بروحه، وقد يسكن إلى جوار النور ولا يحمل منه في قلبه قبساً، وقد يعرف الحق معرفةً تزيد مسؤوليته ولا تزيد هدايته.

وليست المأساة في أن أبا لهب لم يعرف محمداً ﷺ، بل في أنه عرفه ثم عاداه؛ ولم يكن بعيداً عن بيته وأخباره، بل كان من

أقرب الناس إليه نسباً، ثم جعل هذا القرب طريقاً إلى مضاعفة الأذى. إن الجهل بالحق ظلمة، ولكن معرفة الحق ثم محاربته ظلمات متراكبة؛ لأن الإنسان في الحالة الأولى يفتقد الدليل، أما في الثانية فيهرب منه. ومن هنا كانت سورة المسد سورةً في فساد الإرادة بقدر ما هي سورة في بطلان القوة؛ فالحق قد يكون ظاهراً، لكن القلب المملوء بالكبرياء والمصلحة والحسد يرفضه لا لأنه لم يره، بل لأنه رآه ولم يحتمل ما يقتضيه منه.

إننا أمام سورة لا تفصل بين العقيدة والأخلاق؛ فالكفر فيها ليس فكرةً باردةً مستقرةً في الذهن، بل طاقة عدوانٍ تتحرك في اليد واللسان والبيت والطريق. وأبو لهب لم يكتفِ بأن يكذب، بل جعل نفسه عائقاً بين الناس وبين سماع الدعوة، وامراته لم تقف موقف المتفرج، بل شاركت في حمل الأذى وإشعال الخصومة. وهكذا يبين القرآن أن الموقف الباطني، إذا استقر في القلب، بحث عن أدواته في الجوارح والعلاقات؛ فالإيمان يصير رحمةً وصدقاً وبذلاً، والعداوة تصير قولاً وفعلًا وتحريضاً وإيذاءً.

الإنسان لا يحتفظ طويلاً بما في قلبه سرّاً؛ فما يسكن الباطن يصنع له، عاجلاً أو آجلاً، هيئةً ظاهرة.

وفي هذه السورة أيضاً درسٌ بالغ في معنى البيت. لقد جمع الزواج أباً لهب وامرأته، ولكنه لم يرفعهما؛ لأن الاجتماع في ذاته ليس فضيلة، وإنما تكون قيمته في الوجهة التي يمضي إليها. قد يتعاون الزوجان على البر والتقوى فيكون كل واحدٍ منهما سكيناً للآخر وعوناً له على النجاة، وقد يتحالفان على الأذى فيصير كل واحدٍ منهما خطباً في نار صاحبه. وليس كل توافقٍ محموداً؛ فقد يكون الاتفاق على الباطل أشدَّ خطراً من اختلافٍ يوقظ الضمير، وقد يكون الوفاء للزوج خيانةً للحق إذا تحول إلى تأييدٍ لظلمه، وتزيينٍ لعدوانه، ومشاركةٍ في حربه على الهدى.

وسوف نرى كيف حوّل القرآن مظاهر الاعتزاز إلى صورٍ من المهانة: اليد التي كانت تبطش تبت، والمال الذي كان يُظن أنه يحمي لم يُغن، والكنية التي تحمل لفظ اللهب صارت إيذاناً باللهب النار، والمرأة التي كان عنقها موضع زينة صار فيه جبلٌ من مسد. إن الجزء هنا لا يأتي غريباً عن العمل، بل يخرج من

جنسه، حتى يبدو أن الإنسان هو الذي نسج قيده، وجمع خطبه، وأوقد لهبه، وصنع الطريق المؤدي إلى نهايته.

إن سورة المسد لا تريد من قارئها أن يقف متشفيًا عند مصير شخصين، بل أن يفتش عن قوانين الهلاك في نفسه؛ فكم من يدٍ تعمل فيما يصد عن الحق، وكم من مالٍ يُتوهم أنه يغني عن الله، وكم من علاقةٍ تتحول إلى تعاونٍ على الإثم، وكم من لسانٍ يحمل الخطب بين القلوب، وكم من إنسانٍ يظن أن مكانته تمنع عنه عاقبة فعله. إن أسماء الأشخاص تاريخ، أما صفاتهم فتحذير؛ ومن قرأ السورة ليُدين أبا لهب وحده فقد أبعد مرآتها عن وجهه، ومن قرأها ليسأل عن اليد والمال واللسان والرفيق والمصير فقد بدأ يسمع خطابها الحي.

الفصل الأول

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾

حين تبدأ الهزيمة من اليد التي امتدت إلى النور

تبدأ السورة بفعلٍ قصيرٍ حاسمٍ كأنه ضربةٌ ميزانٍ لا ارتداد بعدها: ﴿تَبَّتْ﴾. لا تمهيد، ولا سرد طويل، ولا تفصيل للأحداث؛ لأن الله سبحانه لا يحتاج إلى أن يعرض قوة الباطل أولاً ثم يعلن سقوطها، بل يكشف سقوطها وهي في ذروة شعورها بالقوة. و«التباب» خسارٌ وهلاكٌ وانقطاعٌ عن الخير، وهو أوسع من أن يكون تلفاً عابراً أو إخفاقاً في واقعة؛ إنه انهيار الغاية التي من أجلها تحرك صاحبها، وذهاب الجهد إلى عكس ما أراد، وانتهاء الطريق إلى الضياع مهما بدا في أوله صاحباً مهيئاً.

لقد قال أبو لهب للنبي ﷺ كلمة التبّ حين دعا قومه وأنذرهم، فجاءه الجواب من فوق سبع سماوات لا ليرد الكلمة فحسب، بل لرد ميزان القوة كله. كان الرجل يظن أنه يستطيع بلفظة ازدراءٍ

أن يصغرِ الدعوة، وأن يستخدم مقامه العائلي والاجتماعي ليصرف الناس عن سماع النذير، فإذا الكلمة التي قذف بها ترتد عليه حكماً قرآنياً باقياً. أراد أن يجعل الباب للدعوة، فجاء القرآن ليعلن أن الباب واقعٌ في الجهة التي خرجت منها الكلمة؛ لأن الحقيقة لا تتغير بصخب من يرفضها، والنور لا يُطفأ بالسخرية منه، والرسالات لا تسقط لأن رجلاً ذا مكانةٍ قرر أن يحترقها.

وهكذا تعلّنا الآية أن الكلمة التي تخرج لمقاومة الحق لا تنتهي بانتهاء صوتها؛ فقد تتحول إلى شهادةٍ على صاحبها، وقد يرتد الدعاء إلى قائله، وقد ينطق الإنسان في لحظة غضبٍ بما يكشف حقيقة موقفه كله. ليست الكلمات هواءً يضيع؛ إنها أفعال معنوية تترك آثارها في النفس والتاريخ، ولذلك كان اللسان باباً من أبواب النجاة أو طريقاً من طرق الباب. وما أكثر الذين ظنوا أن السخرية تقتل الفكرة، وأن التشهير يطفىء الحقيقة، وأن ارتفاع الصوت يعوض ضعف الحجة؛ ثم بقيت الحقيقة، ومضوا هم، وبقيت كلماتهم علاماتٍ على عجزهم لا على قوة ما قالوا.

وقد نسب التباب إلى اليدين: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ ، واليد في البيان العربي موضع الفعل والكسب والقدرة؛ بها يأخذ الإنسان ويمنع، ويبني ويهدم، ويعطي ويبطش. وحين يُذكر هلاك اليدين فالمعنى لا يقف عند الجارحتين، بل يمتد إلى المشروع الذي صنعتاه، والقوة التي مثلتاها، والكسب الذي جمعتاه، والأذى الذي باشرته. كأن السورة تعلن: خاب كل ما مدَّ إليه يديه، وسقط كل ما صنعه بهما، وضاع الجهد الذي بذله ليصد الناس عن سبيل الله.

ولم تقل الآية: تبَّت يد أبي لهب، بل ثنَّت اليدين، حتى يكتمل تصوير العجز؛ فلا جهة من جهات قدرته بقيت له، ولا يدُّ نجا بها بعد أن خابت الأخرى. إن اليدين صورة للاكتمال العملي، ولذلك كان هلاكهما إعلاناً عن شلل المشروع كله. لقد دخل الرجل معركته مع الدعوة مستنداً إلى قدرته ومكانته ووسائله، فجاء الحكم على الأدوات قبل الحكم على صاحبها؛ لأن الباطل لا يملك من ذاته بقاءً، وإنما يعيش بما تمده به الأيدي من مالٍ وتحريضٍ ومكر، فإذا تبَّت الأيدي سقط البناء الذي أقامته.

وفي التعبير سرٌّ آخر؛ فالإنسان كثيراً ما يفصل نفسه عن فعله، ويريد أن يحتفظ بصورةٍ نقيّةٍ عن ذاته مع أنه يملأ العالم بأذاه. يقول في داخله: أنا شيء، وما فعلته شيء آخر؛ كأن العمل حادثٌ غريب لا يكشف صاحبه. فجاءت الآية باليدين ثم أعقبت ذلك بقولها: ﴿وَتَبَّ﴾؛ فتبت اليدان أولاً، ثم لحق الحكم بالرجل كله. خسر فعله وخسر ذاته التي اختارت ذلك الفعل؛ لأن الإنسان يصنع نفسه بأعماله، ولا يستطيع أن يرسل الشر من يديه ثم يبقى بعيداً عن عاقبته. ما تفعله الجوارح يعود فيشكّل القلب والوجه والمصير، وكل فعلٍ يخرج من الإنسان يترك فيه شيئاً قبل أن يتركه في العالم.

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾: بدأت الآية بالدعاء أو الإخبار بهلاك يديه، ثم ختمت بتحقيق هلاكه. وكأن المسافة بين الجملة الأولى والثانية هي المسافة بين السبب والنتيجة: تبت الأدوات التي اختارها للأذى، وتب صاحبها الذي سلّم نفسه لها. وليس التكرار هنا إعادةً للمعنى، بل انتقالٌ من الجزء إلى الكل، ومن العمل إلى العامل، ومن إعلان الخسران إلى تقرير وقوعه. لقد

خابت يدها، ثم خاب هو؛ وسقط مسعاه، ثم سقطت الذات التي جعلت وجودها وقفاً على مقاومة الهدى.

ولم يسمه القرآن باسمه، بل بكُنْيته: «أبو لهب». وكانت الكنية في أصلها تحمل معنى يتصل بإشراق الوجه أو حمرة، غير أن السياق القرآني نقلها من زينةٍ يتعارف بها الناس إلى علامةٍ تومئ إلى المصير. فالذي أحب لمعان المكانة في الدنيا، واختار لنفسه أن يكون ناراً على الدعوة وأهلها، تنتظره نارُ ذات لهب. وما أعجب هذا الانقلاب: الكلمة نفسها التي كانت في المجتمع عنوان تمييز صارت في القرآن باباً إلى العار، والاسم الذي ربما أحب صاحبه أن يُعرف به غداً متصلاً بما ينتظره من عذاب.

ولعل في عدم ذكر اسمه «عبد العزى» تنزيهاً للبيان القرآني عن تثبيت عبوديةٍ لصنم، وفي استعمال كنيته كذلك تناسبٌ مدهش مع خاتمته؛ ولكن المعنى الأوسع أن الأسماء لا تحفظ أصحابها، بل الأعمال هي التي تمنح الاسم معناه الأخير. كم من اسمٍ نفخ أفرغه صاحبه من الجلال، وكم من لقبٍ لامع صار بسبب العمل

شاهد إدانة، وكم من إنسانٍ حاول أن يصنع لنفسه ذكراً بالقوة، فلم يبق منه إلا ما يفضح القوة التي اتكأ عليها.

وأبو لهب لم يكن رجلاً بعيداً عن النبي ﷺ، كان عمه، وكانت القرابة في منطق المجتمع تقتضي الحماية والنصرة، ولا سيما في بيئة تجعل رابطة الدم أساساً للتضامن. لكن السورة تكشف أن فساد القلب يستطيع أن يهزم حتى أعراف المروءة التي يتشبث بها المجتمع. لم يكتف أبو لهب بأن يحرم ابن أخيه من النصرة، بل تحول إلى خصمٍ يلاحقه ويصد الناس عنه. وهنا تبلغ المأساة ذروتها: أن يكون الأذى صادراً من الموضع الذي كان ينبغي أن تأتي منه الحماية، وأن تحول القرابة من جدارٍ يرد العدوان إلى نافذةٍ يدخل منها.

غير أن القرب من النبي ﷺ لم يمنح أبا لهب نجاةً، كما أن بُعد المكان لا يحرم طالب الحق من الهداية؛ فموازين الله لا تقوم على الأنساب، بل على الإيمان والعمل. كان بلال الحبشي بعيد النسب قريب الروح، وكان سلمان الفارسي قد قطع الصحارى باحثاً عن الحقيقة حتى صار من أهلها، وكان أبو لهب قريب الدم

بعيد القلب. وهكذا أعادت الرسالة بناء معنى القرابة: ليست القرابة الحقيقية أن يلتقي جسدان في سلسلة نسبٍ واحدة، بل أن تلتقي القلوب عند الحق؛ وليس البعد أن تفصل بين الناس الجبال والبلدان، بل أن يفصل بينهم اختلاف الوجهة والمصير.

إن اليد التي لم تمتد لتحتضن الحق امتدت لتؤذيه، والقلب الذي لم يفرح بأن يخرج النور من بيته امتلاً حسداً وكبراً. وفي هذا درسٌ دقيق: قد يتحول القرب من النعمة إلى فتنةٍ إذا لم يصاحبه قلبٌ يعرف قدرها. فليس كل من عاش بجوار العظمة عظيمًا، ولا كل من شهد بزوغ الحق اهتدى إليه؛ بل قد تكون شدة القرب سبباً في استثارة الحسد عند نفسٍ مريضة ترى فضل القريب انتقاصاً منها. وما أعمق الفرق بين من يرى النعمة على أخيه فيقول: هذا فضل الله، ومن يراها فيقول: لماذا لم تكن لي؟ من السؤال الثاني تبدأ طرق كثيرة إلى الباب.

لقد أراد أبو لهب أن يطفئ الدعوة بيديه، لكنه لم يفهم أن الدعوة ليست ملكاً بشرياً يمكن حصاره، بل رسالة تكفل الله بإبلاغها. وهذه إحدى الحقائق الكبرى في السورة: أن الإنسان

حين يحارب الحق لا يقيس نفسه بقوة أتباعه في لحظةٍ تاريخية، بل يقف - من حيث لا يشعر - في مواجهة السنن التي أقام الله عليها الوجود. قد يستطيع إيذاء المؤمنين، وقد يضيق عليهم، وقد يملأ طريقهم شوًكاً، لكنه لا يستطيع أن يجعل الباطل حقاً ولا الحق باطلاً. يملك أن يؤلم الجسد، ولا يملك أن يغيّر الحقيقة؛ يملك أن يصنع ضجيحاً حول النور، ولا يملك أن يلغي النور.

وما زالت الآية تتجدد كلما ظن صاحب يدٍ باطشة أن قدرته تمنحه حق تحديد مصير الأفكار والرسالات. إن اليد التي لا تعترف بحدودها تتوهم أنها قادرة على الإمساك بالتاريخ وتوجيهه كيف تشاء، لكن القرآن يردها إلى حجمها: يدان من لحم ودم، تحركتا زمنًا قليلاً، ثم عجزتا، ثم صارتا تحت التراب، بينما بقي الكلام الذي حاربتاه يُتلى في المحاريب والبيوت والطرقات. فأَي الطرفین كان أقوى؟ الرجل الذي ملأ لحظته صخباً ثم انطفأ، أم الرسالة التي بدت مستضعفة ثم ملأت الزمان؟

إن القوة لا تُقاس بما تستطيع أن تهدمه في لحظة، بل بما تستطيع أن تُبقيه من معنى؛ والباطل قد يملك القدرة على الإيذاء،

لكنه عقيمٌ عن إنتاج الخلود. ولهذا لم يبق من أبي لهب قصرٌ ولا مجلسٌ ولا رهبةٌ اجتماعية، وإنما بقي اسمه داخل السورة التي حارب صاحبها. أراد أن يقطع ذكر النبي ﷺ، فصار هو نفسه لا يذكر إلا بوصفه شاهداً على صدق النبي، وأراد أن يصرف الناس عن القرآن، فأصبح ملايين المسلمين يتلون القرآن ويقرؤون فيه هزيمته. وهذه من مفارقات الجزاء: أن يستخدم الله مقاومة الباطل نفسها في إقامة الحجة عليه.

وفي قوله: ﴿وَتَبَّ﴾ قطعٌ لكل وهمٍ قد ينشأ من تأخر العقوبة؛ فقد صدر الحكم، وإن تراخى ظهوره في حساب البشر. إن الزمن لا يبدل علم الله، وتأخر سقوط الباطل في الحس لا يعني أنه ثابت في الحقيقة. قد يعيش الإنسان بعد صدور أسباب هلاكه سنوات، يأكل ويضحك ويتحرك، لكنه يكون قد دخل طريق التباب الذي لا رجعة منه ما دام مصراً على عناده. فليست الحياة دليل رضا، ولا امتداد الأيام برهان نجاة؛ وربما كان الإمهال آخر فرصةٍ للتوبة، فإذا تحول إلى مزيدٍ من العناد صار الزمن نفسه طريقاً يحمل صاحبه إلى الحكم الذي اختاره.

وتضع الآية القارئ أمام يديه: ماذا تصنعان؟ وإلى أي غايةٍ تحركان؟ أهما يدان تبنيان أم تهدمان؟ تمسحان دمعاً أم تزرعان شوكاً؟ تنصران مظلوماً أم تكتبان باطلاً؟ تنفقان مالاً في الخير أم تمدان أسباب الفساد؟ فاليدان ليستا عضوين صامتين، بل سيرةٌ تُكتب كل يوم، وستأتي لحظةٌ تنفصل فيها الأعذار عن أصحابها وتبقى الأعمال وحدها. ومن رحمة الله أن اليد التي يمكن أن تكون طريقاً إلى الباب يمكن أن تكون طريقاً إلى النجاة: صدقةٌ خفية، ومصحفٌ يفتح، وجائعٌ يطعم، ومظلومٌ ينصر، وشرٌّ يدفع، وخيرٌ يكتب.

إن أبا هب لم يهزم لأنه كان قليل الوسائل، بل هُزم لأن وسائله كانت في خدمة وجهةٍ باطلة. وهذه حقيقة ينبغي ألا يغفلها المؤمن: ليست العبرة أن تملك يداً قوية، بل أن تعرف أين تضع قوتها؛ فالطاقة لا تكتسب شرفها من مقدارها، وإنما من الغاية التي تتجه إليها. قد تكون اليد ضعيفةً في مقاييس الأرض، لكنها حين تعمل للحق تتصل بمعنى باقٍ؛ وقد تكون شديدة البطش، لكنها حين تحارب الحق تحمل بذرة انهيارها في داخلها.

وهكذا تفتح الآية الأولى باب السورة كله: اليد التي ظنت أنها
تمسك بالمصير لم تكن تمسك إلا بأسباب هلاكها، والرجل الذي
دعا بالتباب على النور كان هو المنقطع عنه، والقريب الذي اختار
العداوة لم تنفعه قرابته، وصاحب المكانة لم تحفظ له مكانته شيئاً.
لقد تبت اليدان، وتب صاحبهما، وبقي السؤال ممتداً إلى كل
قارئ: أيُّ أثرٍ تصنعه يداك قبل أن تُطوى صفحاتهما، وأيُّ مصيرٍ
تنسجان لك في الخفاء وأنت تظن أنك لا تفعل سوى صناعة
يومك؟

الفصل الثاني

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾

حين يسقط وهم الحصانة ويقف الإنسان وحيداً أمام مصيره

بعد أن أعلنت الآية الأولى تباب اليمين وهلاك صاحبهما، انتقلت السورة إلى الحصن الذي كان أبو لهب يلوذ به، ويظن أنه قادرٌ على تعويض كل خسارة ودفع كل خطر: المال وما اتصل به من مكاسب وأولادٍ ومكانةٍ ونفوذ. فقد تهلك اليد، ولكن صاحبها يتوهم أن ما جمعه سيبقى له؛ وقد يضعف الجسد، لكنه يتخيل أن الثروة تستطيع أن تقوم مقامه، وأن تشتري له أسباب القوة، وأن تفتح له الأبواب التي أغلقها الحقيقة في وجهه. فجاءت الآية الثانية لتسقط هذا الوهم من أساسه: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾.

إنها جملة قصيرة، لكنها تهدم فلسفةً كاملةً في النظر إلى الحياة؛ فلسفة الإنسان الذي يظن أن ما يملكه يستطيع أن يحميه مما

يستحقه، وأن الأشياء التي جمعها حول نفسه يمكن أن تصبح
جداراً بينه وبين العدل الإلهي. لقد كان المال في وعي أبي لهب
أكثر من دنائير ودراهم؛ كان شعوراً بالاستغناء، وإحساساً بأن
صاحب الثروة يملك من الخيارات ما لا يملكه غيره، وأنه يستطيع
أن يرد الخطر بما لديه من أعوان وعلاقات ونفوذ. لكن المال
الذي يفتح أبواباً كثيرة في الدنيا يقف عاجزاً أمام باب المصير؛
لأنه لا يملك أن يغيّر حقيقة أخلاقية، ولا أن يحو جريمة لم يتب
صاحبها منها، ولا أن يحول الباطل إلى حق، ولا أن يفاوض عن
الروح حين تقف بين يدي الله.

والقرآن لا يقول إن المال لم يكن كثيراً، ولا إنه لم يكن نافعا
في شؤون الحياة، بل يقول إنه لم يُغنِ «عنه». وهذه الدقة تهدينا
إلى جوهر القضية: فقد ينفع المال حول الإنسان ولا ينفع الإنسان
نفسه؛ يبني له داراً ولا يبني له مصيراً، ويشترى له دواءً ولا
يشترى له أجلاً، ويجمع حوله الناس ولا يمنحه قلباً سليماً، ويكسو
جسده بأنخر الثياب ولا يستر عري روحه أمام الله. قد يغير
ظروف الحياة، لكنه لا يغير قيمة الإنسان عند ربه ما لم يتحول

إلى عملٍ صالح، وقد يمنح صاحبه مزيداً من القدرة، لكنه لا يمنحه بالضرورة حسن الوجهة.

كلمة ﴿عَنهُ﴾ تضع أبا لهب في جهة، وتضع ماله في جهةٍ أخرى؛ وكأن الآية تفصل بين الرجل وبين ممتلكاته بعدما عاش يتوهم أنهما شيءٌ واحد. كان يقول في دخيلة نفسه: أنا مالي، وأنا مكاسبي، وأنا بيتي، وأنا منزلتي بين قريش؛ فلما جاءت ساعة الحقيقة انفصل كل شيءٍ عنه، وبقي وحده. المال خارج الذات مهما اقترب منها، وما يحيط بالإنسان لا يصير جزءاً من روحه؛ وحين يرحل لا يحمل معه ما امتلك، بل يحمل الكيفية التي امتلك بها، والغاية التي أنفق من أجلها، والحقوق التي أداها أو منعها، والخير الذي صنعه أو الشر الذي مولّه.

إن الإنسان في الدنيا يضيف الأشياء إلى نفسه: مالي، وداري، وأرضي، وتجاراتي، وأولادي؛ ثم يأتي الموت فيقلب الإضافة كلها: يصبح المال مال الورثة، والدار دار الساكنين الجدد، والأرض ملك من يأتي بعده، ويبقى العمل وحده منسوباً إليه. وما أعجب أن يقضي المرء عمره في جمع ما سيفارقه، ثم يهمل

صناعة ما لا يفارقه! يُحسن إحصاء أمواله، ولا يحصي قسوة قلبه؛ يخشى النقص في رصيده، ولا يخشى النقص في إنسانيته؛ يتابع نمو ممتلكاته، ولا يسأل هل تنمو روحه أم تذبل. ثم إذا انكشف الغطاء أدرك أن الذي حسبه «له» لم يكن له، وأن الذي حسبه عابراً من أقواله وأعماله كان هو الحقيقة الباقية منه.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ﴾؛ لم تقل الآية: ما أبقى ماله، أو ما كثر، أو ما دام، وإنما نفت عنه القدرة على الإغناء؛ لأن المشكلة لم تكن في وجود المال، بل في الثقة الخادعة التي علقها صاحبه به. فالقرآن لا يذم المال لذاته؛ فقد يكون المال في يد المؤمن رحمةً واسعةً، يطعم به جائعاً، ويؤوي مشرداً، ويفك كربةً، وينصر حقاً، ويبني علماً، ويصون كرامة. لكنه حين يتحول من أداة في يد الإنسان إلى معبودٍ خفيٍّ في قلبه، يصبح حجاباً يمنعه من رؤية ضعفه، ويزرع فيه شعوراً كاذباً بأنه فوق الحاجة والمساءلة.

ليس الخطر أن يملك الإنسان المال، بل أن يعتقد أن المال يملكه من الفقر الوجودي إلى الله؛ أن يتوهم أنه بلغ به درجة لا يحتاج فيها إلى هداية، ولا يخضع فيها لحق، ولا ينحي أمام عدل.

والغنى المادي لا ينزل افتقار المخلوق إلى خالقه؛ لأن الإنسان يمكن أن يستغني عن بعض الناس، لكنه لا يستغني لحظة عن الله. نبضه ليس من ماله، ونفّسه لا يخرج بأمر خزينته، ونومه لا تحرسه الأرقام، وغده لا يدخل في ملكيته. إنه فقير في أصل وجوده، وإن اجتمعت خزائن الأرض في يديه؛ وإنما تهلكه الثروة حين تنجح في إخفاء هذا الفقر عن وعيه.

وقد عبّرت الآية بالفعل الماضي: ﴿مَا أَغْنَى﴾، مع أن أبا لهب كان عند نزول السورة حيّاً، وما تزال أمواله ومكاسبه حوله؛ ولكن المستقبل إذا أخبر الله به صار في اليقين كأنه قد وقع. لقد انتهت المسألة في علم الله، وسقط الوهم قبل أن تأتي اللحظة التي ينكشف فيها سقوطه للناس. المال الذي كان أبو لهب يعدّه قوة قائمة لم يكن في ميزان الحقيقة قد أغنى عنه شيئاً؛ لأن ما يعجز عن حماية صاحبه في الساعة الحاسمة لا يصح أن يسمى حصناً، مهما منحه قبلها من الراحة المؤقتة.

وفي هذا التعبير طمأنينة للمؤمن الذي يرى أهل الباطل محاطين بالأموال والأعوان؛ فقد تخدعه الصورة العابرة فيحسب أن ما

لديهم دليل نجاة، وأن الثروة قادرة على حماية مشاريع الظلم إلى الأبد. لكن القرآن يدعو إلى أن ينظر من نهاية الطريق، لا من ضجيج اللحظة؛ فكل مالٍ لا يصحبه حقٌّ آيلٌ إلى أن يفصل عن صاحبه، وكل قوةٍ لم تخضع للعدل تحمل أجلاً في داخلها، وكل بناءٍ ارتفع على أكتاف المظلومين سيأتي يومٌ لا يغني فيه عن بانيه شيئاً. ليست العبرة بارتفاع الجدار، بل بقدرته على الصمود حين يأتي حكم الله؛ وكم من جدارٍ بدا شامخاً، ثم لم يحتاج سقوطه إلا إلى حلول مواعده.

ثم لم تقف الآية عند المال، بل أضافت: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾؛ لتغلق على النفس كل منفذٍ تبحث من خلاله عن حصانةٍ بديلة. فإذا قال الرجل: لعل مالي لا يكفي، فلي مكاسب أخرى؛ جاء النفي شاملاً لما جمعه المال من حوله من علاقاتٍ ومنافع، وما صنعه صاحبه من مكانةٍ وأتباع، وما كسبه من ولدٍ وامتداد. وقد روي في التفسير أن من «ما كسب» ولد الإنسان؛ لأن الولد من كسب أبيه، ويدخل في اللفظ كذلك كل ما حصله الإنسان بجهد، وكل ما اعتز به وعده ثمرة قدرته.

وهكذا لا تواجه الآية الثروة وحدها، بل تواجه شبكة الاعتماد
الزائف كلها. فالإنسان لا يحتمي بالمال مجرداً، بل بما يشتريه المال
من نفوذ، وبما يصنعه الاسم من رهبة، وبما يمنحه الأبناء والأتباع
من شعورٍ بالامتداد، وبما تراكم حوله من خبرة وعلاقات. وقد
يظن أن هذه الدوائر إذا اجتمعت صنعت له حصانةً كاملة؛
لكن الآية تجمعها في كلمتين ثم تنفي عنها الإغناء: ﴿مَالُهُ وَمَا
كَسَبَ﴾. كل ما هو خارج حقيقة الإيمان والعمل الصالح لا
يستطيع أن يدخل مع الإنسان إلى مقام الحساب ليدفع عنه.

إن الولد امتدادٌ للإنسان في الأرض، ولكنه ليس امتداداً
يخرق قانون المسؤولية؛ فلا يحمل ابنٌ ذنب أبيه، ولا يمنح الأبناء
أبائهم نجاتاً لم يختار أسبابها. وقد يحب الإنسان أبنائه ويتكئ على
كثرتهم، ويرى فيهم بقاء اسمه بعد موته؛ لكن بقاء الاسم ليس
بقاءً لصاحبه، وكثرة الذرية لا تعالج فساد السريرة. قد يترك المرء
وراءه نسلاً كثيراً، ثم يلقي الله وحيداً؛ وقد لا يترك من الدنيا إلا
عملاً صالحاً خفياً، فيجده أمامه أنيساً ونوراً.

وفي الجمع بين ﴿مَالُهُ﴾ و﴿مَا كَسَبَ﴾ استيعابٌ لما ورثه الإنسان وما صنعه؛ فالمال قد يأتي بالميراث أو الوجاهة العائلية، أما الكسب فهو ما أضافه المرء بجهده وسعيه. وكأن الآية تقول: لم يغن عنه ما وُضع في يده، ولا ما صنعه بيده؛ لا ما جاءه من ماضي أسرته، ولا ما بناه في حاضره؛ لا الاسم الموروث، ولا الإنجاز المكتسب. لقد وقف بكل تاريخه الشخصي والعائلي، ثم لم يجد فيه شيئاً يدفع عنه عاقبة موقفه.

وهذا ينسجم مع مطلع السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾، فاليدان هما أداتا الكسب، والمال أبرز ما تجمعها اليدان، ثم يأتي الحكم بأن ما كسبته لم يغن عن صاحبهما. إنها حركة بيانية شديدة الإحكام: تبت اليد التي تجمع، ثم عجز المجموع عن إنقاذ الجامع. فإذا بقي للرجل بعد أن تعطلت الأداة وسقطت الثمرة؟ لقد أفنى حياته في صناعة قوة خارجية، لكنه لم يبن في داخله ما يواجه به الحقيقة؛ فلما انفصلت القوة عنه ظهر فقره الكامل.

كان يستطيع أن يجعل ماله جسراً إلى النجاة، لكنه جعله سوراً يحجب عنه النور؛ وكان يستطيع أن يستخدم مكانته في حماية ابن

أخيه، لكنه استخدمها في حربه؛ وكان يستطيع أن يكون للرسالة نصيراً، فيجمع شرف القرابة إلى شرف الإيمان، لكنه اختار أن يجعل قربه وسيلةً إلى مضاعفة العداوة. فالنعمة الواحدة يمكن أن تصعد بصاحبها أو تهوي به، ولا يتحدد معناها بمقدارها بل بالوجهة التي تُصرف فيها. المال في ذاته إمكانيةً مفتوحة: قد يصير خبزاً في يد فقير، وقد يصير سلاحاً في يد ظالم؛ قد يصنع علماء، وقد يشتري به صاحبه أقلام التضييل؛ قد يفك قيئاً، وقد يُحكم به قيد.

ومن هنا فإن السؤال القرآني ليس: كم امتلكت؟ بل: ماذا صنعت بما امتلكت؟ لأن كثرة المال لا ترفع الإنسان إذا كانت أخلاقه تنخفض كلما ارتفع رصيده. وقد يكون المال قليلاً لكنه مبارك لأنه مرّ في حياة صاحبه نظيفاً، وخرج منها رحمة؛ وقد يكون كثيراً لكنه يحمل في كل جزء منه حقاً ممنوعاً، أو مظلمةً مكتومة، أو كبراً منع صاحبه من سماع كلمة الحق. ليست البركة عدداً يُحصى، بل خيرٌ يتصل بالمال فيجعله أوسع من حجمه، وقد

ينزع الله البركة من الثروة فتغدو، على كثرتها، مصدر قلقٍ وشقاءٍ واستدراجٍ.

وليس المقصود بعجز المال أن الإنسان لا ينتفع به في الدنيا؛ فهذا مخالفٌ للمشاهدة، بل المقصود كشف حدوده. المال نافعٌ داخل الدائرة التي أذن الله له أن يعمل فيها، لكنه إذا بلغ حدود الموت توقف نفوذه. يستطيع أن يؤخر بعض الألم، ولا يستطيع أن يلغي الفناء؛ يمكن أن يجلب أفضل الأطباء، لكنه لا يكتب أجلاً جديداً؛ يمكن أن يبني قبراً فخماً، لكنه لا يضيء لصاحبه ما وراء القبر؛ يمكن أن يدفع الناس إلى الثناء، لكنه لا يبذل علم الله بالسرائر.

إن المأساة لا تبدأ حين يفقد الغني ماله، بل حين يفقد بسبب المال وعيه بحقيقة نفسه. فإذا جعله المال يعتقد أنه أكبر من النصيحة، وأرفع من الاعتذار، وأغنى من التوبة، فقد بدأ المال يسلبه أئمن ما عنده وإن كان يزيد في خزائنه. قد يبدو أنه يمتلك أكثر، لكنه في الحقيقة يخسر القدرة على الرجوع؛ وتلك من

أفدح الخسارات، لأن القلب حين يستغني بوهمه لا يعود يسمع نداء الهداية إلا بوصفه تهديداً لمكانته.

لعل أبا لهب لم ير في دعوة النبي ﷺ سؤلاً عن الحق والباطل فحسب، بل رآها زلزالاً يهدد ترتيب المكانة الذي عرفه، ويضع الغني والفقير، والسيد والعبد، والقريب والبعيد أمام إله واحد، ويجعل التقوى لا الثروة معيار الكرامة. وهذا ما لا تحتمله نفس بنت هويتها كلها على الامتياز الاجتماعي؛ فالحق لا يطلب منها أن تضيف فكرةً إلى أفكارها، بل أن تعيد تعريف نفسها، وأن تنزل عن العرش الوهمي الذي صنعه المال والنسب.

لهذا تكون مقاومة الحق أحياناً دفاعاً عن المصالح المتخفية خلف الأقوال؛ فالإنسان قد يجادل بلسانه، بينما الذي يرتجف في داخله هو موقعه ونفوذه. وقد يدعي أنه يرفض الفكرة لأنها غير مقنعة، بينما الحقيقة أنه أدرك ما ستلزمه به من عدلٍ وتواضع وردٍّ للحقوق. إن الأفكار الباطلة لا تعيش بقوة حججها وحدها، بل بما تحرسه من امتيازات؛ فإذا جاءت الحقيقة لتعيد الأشياء إلى ميزانها، شعر المنتفعون من الاختلال أنها عدوة لهم.

وتكشف الآية أن المال إذا لم يربط صاحبه بالحمد تحوّل إلى حجاب؛ فالمؤمن يرى المال عاريةً أودعها الله في يده، ولذلك يشكره ويؤدي حقه ويعلم أن الواهب قادرٌ على أخذه. أما المغرور فيرى المال برهان تفوقه الذاتي، فينسب النعمة إلى نفسه، ثم يستمد منها شعوراً بالاستقلال. الأول يملك المال وهو يعلم أنه مستخلفٌ فيه، والثاني يملكه المال لأنه علّق عليه قيمته وأمنه ومعنى وجوده؛ فإذا نقص اضطرت نفسه، وإذا زاد ازداد طغياناً، لأنه لم يعد يرى فيه وسيلةً بل يرى فيه تعريفاً لذاته.

﴿وَمَا كَسَبَ﴾ تحمل كذلك معنى أخلاقياً بالغاً، فالإنسان لا يكسب الأشياء وحدها، بل يكسب نفسه التي تكون أثناء السعي إليها. من جمع المال بالحلال والرحمة والصيانة كسب، مع المال، نفساً عفيفةً ويداَ نظيفةً؛ ومن جمعه بالظلم والكبر كسب، مع المال، قلباً قاسياً وروحاً مثقلة. وقد يظن الاثنان أنهما وصلا إلى النتيجة نفسها لأن الأرقام متشابهة، لكن الحقيقة أن كل واحدٍ منهما صار إنساناً مختلفاً خلال الطريق. إن كيفية الكسب جزءٌ

من المكسب، بل قد تكون هي المكسب الحقيقي أو الخسارة الحقيقية.

وما كسبه أبو لهب في الظاهر كان مآلاً ومكانةً، أما ما كسبه في الباطن فكان عناداً وعداوةً وقسوةً؛ فلما سقطت القشرة الخارجية بقي الكسب الداخلي يصحبه إلى مصيره. لم يأخذ معه خزائنه، لكنه أخذ القلب الذي صنعه جمع الخزائن واستعمالها في غير الحق. وهكذا يفارق الإنسان أدوات الجريمة، ولا يفارق أثر الجريمة في روحه؛ يترك السلاح، ويحمل الدم؛ يترك المال، ويحمل تبعة منعه أو إساءة إنفاقه؛ يترك المجلس الذي حرّض فيه، ويحمل الكلمات التي خرجت منه.

إن المال عاجزٌ عن إنقاذ صاحبه بعد الموت، لكنه قادرٌ - قبل الموت - أن يكون سبباً في نجاته إذا قدّمه بين يديه عملاً صالحاً. وهذه هي المفارقة: ما تحتفظ به لنفسك يفارقك، وما تبذله لله يبقى لك. الدراهم التي بقيت في الخزائن تنتقل إلى غيرك، والدراهم التي مسحت بها ألماً أو حفظت بها كرامةً تنتظرُك. ما أنفقّه الإنسان في سبيل الخير ليس مآلاً خرج من ملكه، بل مالٌ

خرج من الفناء إلى البقاء؛ وما أمسكه بخلاً ليس مალًا حفظه، بل مالٌ سلّمه لمن يأتي بعده وربما أبقى على نفسه حسابه.

ولهذا لا تدعو الآية إلى احتقار المال، بل إلى تحرير الإنسان من عبادته، وإلى إعادة المال إلى منزلته الصحيحة: خادمًا لا سيّدًا، وسيلةً لا غاية، أمانةً لا هوية، امتحانًا لا شهادة رضا. فإذا فهم الإنسان ذلك خَفَّ تعلّقه بما في يده، وصار قادرًا على البذل من غير أن يشعر أن جزءًا من ذاته يُنتزع منه؛ لأنه يعلم أن ذاته أكرم من أن تُختصر في مال، وأن غناه الحقيقي فيما استقر في قلبه من يقينٍ ورضا، وفيما قدّم من خيرٍ يلقاه.

والآية لا تسأل القارئ عن أبي لهب وحده، بل تضع أمامه أشكال المال المتعددة في حياته. فربما لم يكن له مالٌ كثير، لكنه يتكئ على علمه أو منصبه أو شهرته أو جماعته أو أسرته أو تاريخه، ويعامل واحدًا من هذه الأشياء كما عامل أبو لهب ماله: يظنه قادرًا على أن يُغني عنه. وقد يكون رأس مال المثقف معرفته، ورأس مال القائد أتباعه، ورأس مال الكاتب كلماته، ورأس مال

صاحب المنصب سلطته؛ وكلها نعمٌ يمكن أن تكون طريقاً إلى الخير، لكنها لا تغني عن صاحبها إذا فسدت نيته وانحرف عمله. كم من عالمٍ ظن أن علمه يُغنيه عن إخلاصه، وكم من عابدٍ ظن أن ظاهره يُغنيه عن تطهير قلبه، وكم من صاحب تاريخٍ حسب أن ماضيه الصالح يُغنيه عن استقامته في الحاضر، وكم من قريبٍ من أهل الخير توهم أن قربه يكفيه. وتأتي السورة لتقول: لا شيء يغني عن الإنسان إذا وقف بين يدي الله إلا ما ارتضاه الله من إيمانٍ صادقٍ وعملٍ صالحٍ ورحمةٍ وعدل. كل حصانةٍ أخرى مؤقتة، وكل هويةٍ لا يصدّقها العمل قشرةٌ ستسقط.

إن أبا لهب جمع بين وهم النسب ووهم المال؛ كان قريباً من النبي ﷺ، وغنياً في قومه، فاجتمع له ما يظنه الناس ضمانتين: شرف الانتماء وقوة الامتلاك. لكن السورة أسقطتهما معاً؛ فلم تنفعه قرابته لأنه حارب صاحب الرسالة، ولم ينفعه ماله لأنه استخدمه في غير مرضاة الله. وبذلك تحرر الإنسان في ميزان القرآن من سلطان الطبقات والأنساب؛ فلا يولد أحدٌ ناجياً لمجرد البيت الذي وُلد فيه، ولا يولد آخرٌ هالِكاً لفقره أو ضعف أسرته.

الطريق مفتوحٌ أمام الجميع، والمسؤولية فردية، والكرامة تُبنى في القلب والعمل.

وليس في قوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ مجرد خبرٍ عن فشل الحصانة، بل تصويرٌ للحظة انكشافٍ مروعة: لحظة يلتفت فيها الإنسان إلى ما قضى عمره يجمعه، فلا يجده قادراً على خطوةٍ واحدة نحوه. المال الذي كان حاضراً في كل قرار يغيب عند القرار الأخير؛ والأتباع الذين كانوا يحيطون به يتراجعون؛ والأبناء الذين كان يرى فيهم امتداده يقفون عند حدود عجزهم؛ والاسم الذي كان يفتح الأبواب لا يفتح باب النجاة. يبقى الإنسان وحده، لا كما كان يعرف نفسه أمام الناس، بل كما يعرفه الله.

وما أوجع أن يكتشف المرء متأخراً أنه بذل حياته كلها في تقوية ما سيتركه، وأضعف ما سيحمله؛ بنى خزانته وهدم قلبه، وسَّع داره وضيق روحه، حسن صورته في أعين الناس وأفسد حقيقته في علم الله. سورة المسد توقظه قبل تلك اللحظة، لا لتنتزع الدنيا من يده، بل لتنتزع الوهم من قلبه؛ كي يستخدم ما يملك

ولا يركن إليه، ويعمر الأرض ولا ينسى الآخرة، ويجمع من
الحلال دون أن يسمح للمجموع أن يحجبه عن المنعم.

وهكذا تنتهي الآية الثانية وقد جرّدت أبا لهب من آخر ما كان
يظنه دفاعاً: تبت يداه، ثم لم يُغنِ عنه ما جمعت يداه. سقطت
القوة وسقطت ثمرتها، وبقي الرجل مكشوفاً أمام المصير الذي
سيصرح به القرآن في الآية التالية: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾.
هناك لن يكون اللهب كنيةً يفاخر بها، ولا صورةً من إشراق
الوجه، بل حقيقةً تحيط به؛ ولن يكون المال جداراً يرد النار، بل
سيقف صاحبه أمام ما صنعه، وقد ذهبت عنه الأشياء كلها إلا
عاقبة اختياره.

الفصل الثالث

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾

حين تنقلب الكنية مصيراً وتنكشف النهاية التي كان الطريق يخفيها

بعد أن أعلنت السورة تباب اليمين، وهلاك صاحبهما، وعجز المال والمكاسب عن إنقاذه، كشفت الآية الثالثة عن المصير الذي كانت الآيتان السابقتان تمهدان له: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾. لم يعد الحديث هنا عن خسارة تقع في أطراف الحياة، ولا عن انهيار مشروع دنيوي، ولا عن مالٍ يعجز عن أداء وظيفته؛ بل انتقل المشهد إلى الآخرة، حيث يتحول التباب من معنى يُخبر عنه إلى عذاب يُصلى، وتتحول العداوة التي استقرت في القلب وتحركت في اليد إلى نهايةٍ تحيط بصاحبها.

إن النار في هذه الآية حقيقةٌ من حقائق الغيب أخبر الله بها، وليست مجرد رمزٍ نفسي للندم، ولا استعارةً عن سقوط المكانة في التاريخ؛ وإن كان الندم والحزني داخليين في عذاب صاحبهما.

فالقرآن يحدثنا عن نارٍ حقيقيةٍ أعدها الله جزاءً لمن اختار الكفر والعناد ومات عليهما، والإيمان بها جزءٌ من الإيمان بنخب الله الذي لا يأتيه الباطل. وليس من التدبر أن نُفرغ الغيب من حقيقته لنجعله فكرةً أخلاقيةً مجردة؛ بل التدبر أن نؤمن بالمعنى كما جاء، ثم نبصر ما يحمله من إنذارٍ للنفس، وما يكشفه من عدل الله، وما يقيمه في الوعي من تناسبٍ بين العمل والمصير.

وقد جاءت السين في قوله: ﴿سَيَصِلَ﴾ لتفتح نافذة المستقبل، لكنها ليست مستقبلاً مجهولاً تتردد فيه الاحتمالات؛ إنه مستقبلٌ أخبر به العليم، فصار في يقينه كالحاضر المشهود. كان أبو لهب عند نزول السورة يتحرك في مكة، ويملك المال، ويجالس الناس، ويشارك في مقاومة الدعوة، لكن القرآن كان ينظر إلى ما وراء المظهر العابر ويرى النهاية التي لا تراها العيون. وبين الرجل وبين النار سنواتٌ من الزمن في حساب البشر، أما في ميزان الحقيقة فالطريق موصولٌ بنهايته، والمصير يتقدم إليه في كل يومٍ ما دام ماضياً في اختياره.

وهذا من أعظم ما يريه القرآن في العقل: أن المستقبل ليس فراغاً، وأن الأفعال لا تمضي بلا غايات، وأن كل طريق يحمل في طبيعته وجهةً ينتهي إليها. فالإنسان قد ينظر إلى خطوته منفصلةً عما بعدها، ويرى الكلمة لحظةً عابرةً، والظلم حادثةً تنتهي، والعداوة موقفاً سياسياً أو اجتماعياً مؤقتاً؛ لكن الوحي يجمع أجزاء الطريق، ويربط البداية بالنهاية، ثم يقول لصاحبه: إنك لا تختار الفعل وحده، بل تختار - من حيث تشعر أو لا تشعر - العاقبة التي يقود إليها ذلك الفعل.

لم يكن أبو لهب في كل يومٍ من أيام عداوته يفعل أفعالاً متفرقةً لا صلةً بينها، بل كان يبني طريقاً؛ وكل موقفٍ جديدٍ يضع حجراً آخر فيه. وحين قال الله: ﴿سَيَصْلَى﴾ كشف النهاية الكامنة في مجموع تلك الاختيارات. إن النار لم تأتِ في السورة حادثاً غريباً انقطع عما قبله؛ جاءت بعد اليدين، والمال، والكسب، لتعلن أن الجوارح والأموال والمواقف لم تذهب في الفراغ، بل اجتمعت لتشهد على الوجهة التي اختارها صاحبها.

والإنسان كثيراً ما يريد الفعل ولا يريد نتيجته؛ يريد الظلم ولا يريد أن يسمى ظالماً، ويختار الكبر ولا يريد عزلة المتكبرين، ويؤذي ولا يريد أن يعود إليه الأذى، ويعرض عن الله ثم يريد في ساعة الخوف أن يجد الطمأنينة قريبةً منه. غير أن الوجود الأخلاقي لا يقوم على أهوائنا؛ فلكل اختيار أثر، ولكل طريق نهاية. ومن رحمة الله أنه لا يفاجئ الإنسان بالمصير من غير إنذار، بل يرسل إليه الوحي ليكشف له آخر الطريق وهو ما يزال في أوله، حتى لا يقول يوم الوصول: لم أكن أعلم إلى أين أمضي.

إن كلمة ﴿سَيِّضَلَى﴾ ليست إعلاناً للمصير فحسب، بل إنذارٌ قبل وقوعه؛ فالقرآن حين يخبر عن النار لا يريد أن يحولها إلى مشهدٍ بعيدٍ يتلذذ القارئ بوصفه، بل يجعلها حقيقةً تهز اختياراته. الإيمان بالنار ليس معرفةً باردةً بمكانٍ في الآخرة، بل وعيٌ أخلاقي يعيد ترتيب الحياة؛ فمن صدق أنها حق لم تعد أفعاله الصغيرة صغيرةً في نظره، ولم يعد يرى المعصية لحظةً منقطعة، ولم يندع بستر الله وإماله. يدرك أن للوجود جديةً، وأن الإنسان لم

يُخلق عبثاً، وأن الخير والشر لا يستويان في النهاية كما لا يستويان في الحقيقة.

وفي الآية عدلٌ مهيب، لا انتقامٌ بشريٌّ مضطرب؛ فالله سبحانه لا يعذب أحداً بغير جرم، ولا يظلم مثقال ذرة، وقد قامت على أبي لهب الحجة، وعرف صدق النبي ﷺ وأمانته، ثم اختار أن يحول معرفته وقربه وقدرته إلى أدواتٍ لمحاربة الحق. لم يكن ضحية غموضٍ لم يستطع تجاوزه، بل كان صاحب موقفٍ إرادي تكرر حتى صار طريقاً ثابتاً. جاءت النار جزاءً على إصرارٍ لم يتب صاحبه منه، لا على هفوةٍ ندم عليها، ولا على ضعفٍ قاومه، ولا على خاطرٍ مر بقلبه ثم استعاذ بالله منه.

وهذا التفريق ضروري لفهم عدل الجزاء؛ فالقرآن لا يصور أبا لهب إنساناً ضعيفاً تعثر ثم قام، بل رجلاً جعل حياته مشروعاً في مقاومة النور، واستثمر ما يملك في الصد عنه، ومضى على ذلك حتى انتهى أجله. إن المؤمن قد يذنب، لكنه يحمل في قلبه باباً مفتوحاً للندم والرجوع؛ أما العناد فهو أن يحول الإنسان ذنبه إلى موقف، وموقفه إلى هوية، ثم يدافع عنه ويرفض كل نداءٍ يخرج به

منه. ليست الخطورة في أن يسقط المرء مرةً، بل في أن يبنى بيتاً داخل السقوط ويسميه كرامة.

وقد كان في وسع أبي لهب، من جهة الاختيار الإنساني، أن يسمع ويتدبر ويتواضع، لكنه أصرَّ على موقفه، وظلَّت السورة تُثلى وهو حيٌّ، وظل يسمع الحكم الذي ينتظره، فلم يدفعه ذلك إلى الإيمان ولا إلى مراجعة نفسه. لقد كان أمام خبرٍ إلهي يكشف خاتمته، ومع ذلك أكمل الطريق كأن العناد قد صار عنده أعرَّ من النجاة. وهذه صورة مخيفة لما يمكن أن يفعله الكبر بالقلب: قد يرى الإنسان الهاوية، لكن الاعتراف بالحق يبدو له أشد مرارةً من السقوط فيها.

ومن هنا كانت النار قبل أن تكون عذاباً في الآخرة ثمرةً لانطفاء البصيرة في الدنيا؛ فالقلب الذي يستسلم للحسد والكبر والعداوة يفقد بالتدريج قدرته على رؤية ما ينقذه. لا تعود المشكلة نقصاً في الأدلة، بل فساداً في الاستعداد لتلقيها. وربما كثرت البراهين فزادت المعاند ضيقاً؛ لأن كل برهانٍ جديد لا يراه نافذةً إلى الهدى، بل يراه تهديداً لبناءٍ نفسيٍّ أقامه حول ذاته. إنه لا

يسأل: أهذا حق؟ بل يسأل: ماذا سيبقى من صورتى ومكانتى إذا اعترفت بأنه حق؟

وهذا يفسر كيف يستطيع القريب أن يكون أبعد من البعيد؛ فقد كان أبو لهب قريباً من النبي ﷺ نسباً ومكاناً ومعرفة، لكنه وضع بينه وبين الحقيقة جداراً من الكبر والمصلحة. بينما جاء أناسٌ من أطراف الأرض يحملون قلوباً صادقة، فقطعوا المسافات إلى الإيمان. المسافة الحقيقية بين الإنسان والهدى لا تُقاس بالأُميال، بل بمقدار ما في القلب من استعدادٍ للتجرد. قد يجلس المرء إلى جوار النور ولا يبصره لأنه أغمض عينيه، وقد يلح آخر شعاعاً بعيداً فيتبعه حتى يبلغ مصدره.

﴿نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾؛ لم تكتف الآية بذكر النار، بل وصفتها بأنها ذات لهب، ليتصل المصير بالكنية اتصالاً يهز النفس. كان يُكنى «أبا لهب»، وهي كنيةٌ توحى في أصل استعمالها بالإشراق والحرارة، فجاء اللهب في خاتمته حقيقة عذاب. كأن الكنية التي كانت تُقال في مجالس الدنيا قد انقلبت عنواناً لما ينتظره؛ وكأن الإنسان الذي جعل من نفسه لهباً يحرق طريق الدعوة سيصلى

ناراً ذات لهب. ليست المشابهة اللفظية زينةً بيانيةً منعزلة، بل توافقٌ بين هويةٍ أحبا صاحبها، وفعلٍ اختاره، ومصيرٍ انتهى إليه.

إن القرآن يأخذ اللفظ الذي كان يمكن أن يكون موضع فخرٍ فيقلبه على صاحبه؛ لأن اللغة التي يصنع بها الإنسان صورته أمام الناس لا تملك أن تغير حقيقته عند الله. قد يحسن المرء اختيار ألقابه، ويحيط اسمه بهالةٍ من الجلال، لكنه لا يستطيع أن يختار معنى اسمه في التاريخ بعد أن تُكشف أعماله. الأعمال هي التي تفسر الأسماء في النهاية، وقد يُعجب الإنسان بالصورة التي بناها لنفسه، ثم يأتي الحق فيززع عنها الزينة ويرينا ما وراءها.

ولهب الدنيا يلمع من بعيد، وقد يخدع الناظر فيحسبه نوراً؛ لكن الفرق عظيمٌ بين النور واللهب. النور يكشف الطريق ويمنح الأشياء إمكان الظهور، أما اللهب فيلتهم ما يقترب منه. النور هداية، واللهب إحراق؛ النور يمنح، واللهب يستهلك. وقد اختار أبو لهب أن يكون في مواجهة النور، فتحولت حياته إلى لهب عدوانٍ، ثم انتهى إلى لهب الجزاء. ومن أخطر ما يقع فيه الإنسان

أن يخلط بين اللعان والنور؛ فليست كل شهرة هداية، ولا كل قوة إشراقاً، ولا كل حضور بين الناس حياةً حقيقية.

إن النفوذ يلع، والمال يلمع، والمكانة تلمع، لكن هذا اللعان قد لا يحمل دفئاً ولا هداية؛ وربما كان لهباً يلتهم روح صاحبه بينما يظنه نوراً يرفع شأنه. كم من إنسانٍ أحاطته الأضواء حتى حجت عنه نفسه، وظن أن كثرة من ينظرون إليه تعني أن الله راضٍ عنه، وأن ارتفاع صوته دليل صحة موقفه. تأتي السورة لتفصل بين ضوء الحقيقة وبريق الوهم؛ فالنور ما قاد إلى الله، وما عداه قد يكون لهباً مهما أدهش العيون.

واللهب صورةٌ للحركة والاضطراب؛ فهو لا يستقر على هيئة، بل يتصاعد ويلتهم ويتقلب. وفي وصف النار بأنها ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ زيادةٌ في تصوير شدتها وإحاطتها؛ إنها نارٌ متأججة ليست خامدة ولا بعيدة الأثر. ولا يملك المال الذي عجز في الآية السابقة أن يواجه هذا اللهب، فالشيء الذي كان أبو لهب يتوهم أنه يمنحه الأمان لا يملك أن يرد عنه لحظةً من العذاب. وهنا يكتمل

سقوط الحصون: اليد لا تدفع، والمال لا يفدي، والكسب لا ينصر، والنار مقبلة.

وقد جاءت ﴿نَارًا﴾ نكرةً لتبعث في النفس معنى التفخيم والتهويل؛ ناراً لا تحيط العقول بحقيقتها، ولا تشبه نار الدنيا إلا في الاسم الذي يقرب المعنى إلى الأذهان. وما نار الدنيا، على شدتها، إلا تذكيرٌ ضعيفٌ بحقيقةٍ غيبيةٍ أعظم. لكن الإنسان يألف الكلمات حتى تفقد أثرها في قلبه؛ يسمع «النار» كما يسمع خبراً متكرراً، من غير أن يقف عند فداحة أن تكون نهاية الوعي الإنساني ألماً لا يملك صاحبه دفعه. ومن وظائف التدبر أن يعيد إلى الكلمة القرآنية جلالها، لا بإضافة الخيال المتكلف، بل بإزالة حجاب الألفة عنها.

إننا نقرأ الآية بالسنتنا في ثوانٍ، لكن أبا لهب سيواجه حقيقتها؛ وبين القراءة والمواجهة مسافةٌ ينبغي أن يملأها الإيمان والعمل. ليس المقصود أن يعيش المؤمن مدعوراً يأساً، بل أن يعيش يقظاً، يجمع بين خوفٍ يمنعه من الإصرار ورجاءٍ يفتح له باب التوبة. النار في القرآن ليست باباً إلى القنوط، وإنما القنوط أن

يظن الإنسان أن لا طريق له إلى النجاة وهو ما يزال حيًّا؛ أما الإنذار فهو من الرحمة، لأنه يكشف الخطر قبل الوصول إليه.

وإذا كان ذكر النار يوقظ الخوف، فإن الخوف الصحيح ليس رعشةً عابرةً عند سماع الآيات ثم يعود الإنسان بعدها إلى عاداته، بل قوةً أخلاقيةً تغير السلوك. من خاف النار حقًّا أخرج من قلبه حطبها قبل أن يخرج من يده؛ قاوم الكبر، ورد المظالم، وحفظ لسانه، ولم يجعل عداوته لإنسانٍ بابًّا إلى العدوان، ولم يتكئ على ماله وكأنه سيخلده. الخوف الذي لا يغيّر الاختيارات إحساسٌ مؤقت، أما الخشية فعرفةٌ تستقر في القلب فتضبط اليد واللسان والوجهة.

إن الآية لا تعطينا حق تحويل خبر المصير إلى أداةٍ للتشفي من الخلق؛ فالمؤمن حين يسمع عن النار لا يفرح بعذاب الناس، بل يخاف من أسبابها، ويحمد الله على الهداية، ويرجو للحي التوبة ما دام بابها مفتوحًا. والأنبياء لم يأتوا ليجمعوا أهل النار، بل ليحذروا الناس منها؛ كانوا يحملون من الرحمة ما يجعلهم يتألمون لإعراض أقوامهم، مع يقينهم بعدل الله فيمن أصر واستكبر. ومن فقه

الإذار أن يزيد الإنسان رحمةً بالدعوة إلى النجاة، لا غروراً كأنه ضمن لنفسه السلامة.

لكن الرحمة لا تعني إلغاء العدل، ولا تميع الفارق بين من آمن ومن حارب الإيمان، ولا تحويل النار إلى صورةٍ لا حقيقة لها. إن الرحمة التي لا تعترف بالمسؤولية تتحول إلى عبثٍ أخلاقي؛ إذ كيف يستوي من بذل نفسه للحق بمن سخر يديه وماله لإيذائه؟ وكيف يستوي المظلوم والظالم إذا أصر الظالم على ظلمه ومات من غير توبة؟ إن وجود الجزاء إعلانٌ أن آلام المظلومين ليست منسيةً، وأن الدمعة التي سقطت تحت يد المعتدي لم تضيع، وأن الكون ليس ساحةً يفعل فيها الأقوياء ما يشاؤون ثم ينتهي كل شيءٍ إلى عدمٍ لا يميز بين برٍّ وفاجر.

النار في هذا المعنى جزءٌ من جدية الوجود؛ فهي تقول إن الإنسان مسؤول، وإن الحرية ليست لعباً، وإن الاختيارات لها وزنٌ يتجاوز اللحظة. ولو لم يكن للشر جزاءٌ أخير، لكان التاريخ مقبرةً للعدالة، ولكان من أفلت من عقوبة الدنيا قد انتصر إلى الأبد. لكن الآخرة تعيد كل شيءٍ إلى نصابه؛ لا بما تهواه

عواطف البشر المتقلبة، بل بعلم الله الكامل وعدله الذي لا يظلم
مثقال ذرة.

لقد كان أبو لهب يملك في الدنيا قدرةً على الإيذاء، وربما رأى
في تأخر العقوبة دليلاً على قوته، لكن قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ﴾
يبدد وهم الإفلات. فالتأخير ليس إلغاءً، والإمهال ليس إهمالاً،
وغياب العقوبة عن العين لا يعني غيابها عن الميزان. قد يخرج
الظالم من واقعةٍ بلا حساب، ويموت في فراشه بعيداً عن سجون
البشر، لكن الموت نفسه ينقله من ساحةٍ ناقصة العدالة إلى مقامٍ
لا تضيع فيه خافية.

وهنا يتعلم المؤمن ألا يجعل رؤيته المحدودة معياراً لعدل الله؛
فقد يرى الباطل منتفشاً والحق محاصراً، فيضيق صدره ويسأل:
أين النهاية؟ فتأتي سورة المسد فتضع النهاية إلى جوار البداية في
خمس آيات. الرجل يتكلم في مكة، والقرآن يريه النار؛ المال
حاضر، والقرآن يعلن عجزه؛ المرأة تمشي، والقرآن يصور الحبل في
جيدها. إن الوحي يطوي الزمن لكي يمنح المؤمن رؤيةً كاملة، فلا
يُفتن بلبقةٍ عابرةٍ من قصةٍ لم تبلغ خاتمتها.

وليس المقصود من هذا اليقين أن يتخلى الإنسان عن مقاومة الباطل في الدنيا انتظاراً للآخرة، بل أن يقاومه من غير أن يعبدّه بالخوف، ومن غير أن يظن أن مصير الحق متوقفٌ على قدرته الفردية. يعمل ما يستطيع، ويثبت، ويقول كلمة الحق، لكنه يعلم أن لله الحكم الأخير، وأن عمر الظلم - مهما طال - أقصر من عمر الحقيقة. بهذا اليقين يتحرر من اليأس حين تتأخر النتائج، ومن الغرور حين يأتي النصر؛ لأنه لا يرى نفسه صانع المصير، بل عبداً يعمل داخل قدر الله.

وتحمل الآية كذلك تحذيراً من أن تتحول نفس الإنسان إلى صورةٍ من اللهب قبل الآخرة؛ فالحسد لهبٌ يأكل سلام القلب، والغضب للباطل لهبٌ يحرق العقل، والكبر لهبٌ يلتهم القدرة على الاعتراف، والعداوة لهبٌ يجعل صاحبها يعيش أسير من يعاديه. وقد كان أبو لهب قبل أن يصلّي النار يعيش في داخله ناراً من الحقد على الرسالة؛ لم يستطع أن يرى ابن أخيه يُكرم بالوحي دون أن تشتعل نفسه، فتحول همه إلى الصد عنه. الشريعة عاقب صاحبه في الدنيا بجزءٍ من طبيعته قبل أن يلقي جزاءه الكامل في الآخرة.

لكن لا ينبغي أن نخلط بين هذا المعنى النفسي وبين حقيقة النار الأخروية؛ فكون الحسد ناراً معنوية لا يلغي النار التي أخبر الله بها، وإنما يكشف تناسباً بين باطن العمل وظاهر الجزاء. لقد اختار الرجل في الدنيا ما يشبه النار: الحقد والإيذاء والإفساد؛ فجاء مصيره ناراً ذات لهب. والجزاء من جنس العمل لا يعني أن الإنسان يخلق جزاءه استقلالاً، بل يعني أن الله بحكمته جعل بين العمل ومآله تناسباً يكشف عدله.

ومن بلاغة السورة أن اسم «أبي لهب» جاء في الآية الأولى، ثم عاد «اللهب» وصفاً للنار في الآية الثالثة، فكأن اللفظ تحرك من الدنيا إلى الآخرة، ومن الكنية إلى الحقيقة، ومن الصورة التي عرف بها الرجل بين الناس إلى الصورة التي يعرف بها مصيره. وبين اللهبين تقف الآية الثانية: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾، كأن المال حاجزٌ حاول الرجل أن يضعه بين لهب اسمه ولهب نهايته، فلم يغنِ عنه شيئاً.

ويمكن رؤية بناء الآيات الثلاث في حركة لا تسمح بالفرار: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ سقوط القدرة، ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا

كَسَبَ ﴿ سقوط الحماية، ﴿سَيَصِلَ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ظهور
المصير. فإذا بطلت القدرة، وعجزت الحماية، وانكشف المصير، لم
يبق للإنسان إلا حقيقة عمله. إنها عملية تجريدٍ كاملة تنزع عنه ما
توهم أنه قوته، حتى يقف كما هو، بلا يدٍ تنصر، ولا مالٍ يفدي،
ولا اسمٍ يجمل.

والسؤال الذي تضعه الآية أمام القارئ ليس: كيف كانت نار
أبي لهب فحسب؟ بل: ما الطريق الذي أسلكه أنا، وإلى أي نهايةٍ
يحملني؟ فكل إنسانٍ يتحرك نحو مصير، ولو ظن أنه يدور في
تفاصيل الأيام. عاداتنا الصغيرة تحدد اتجاهنا؛ الكلمات التي
نكررها تصنع قلوبنا؛ والمواقف التي نظنها عابرةً تتراكم حتى تصبح
شخصيةً ثم خاتمة. لا أحد يصل فجأةً إلى نهايةٍ لم يمش في طريقها؛
وإنما الخواتيم ثمار مساراتٍ طويلةٍ قد تبدأ بخاطرٍ لم يقاومه صاحبه،
ثم كلمة، ثم فعل، ثم إصرار.

ولذلك فإن النجاة تبدأ قبل النار بوقتٍ طويل: تبدأ حين ينتصر
الإنسان على أول شرارةٍ كبرٍ في قلبه، وحين يراجع نفسه قبل أن
يتحول الخطأ إلى هوية، وحين يقبل الحق ولو جاء على لسان من لا

يحب، وحين لا يجعل الخصومة مبرراً للظلم، وحين يستخدم ماله ويده في الخير. من أطفأ لهب الباطل في داخله بماء التوبة لم يدعه يكبر حتى يحرق حياته؛ ومن استصغر الشرارة وتركها غذاها الحطب حتى صارت ناراً يصعب عليه الخروج منها.

إن باب التوبة يعلّنا أن الطريق، وإن اتجه إلى النار، يمكن أن يتغير ما دام الإنسان حياً ولم يأت ما يمنع قبول توبته. لكن أبا لهب جعل الإصرار خاتمة حياته، فصار خبره إنذاراً لمن بعده. وليس المطلوب أن يتشبه القارئ بمن انتهى أمره في اليأس، بل أن يتعظ به في زمن الإمكان؛ فالسورة نزلت لتخبر عن مصير أبي لهب، لكنها تُتلى لتمنع الآخرين من اتخاذ طريقه.

﴿سَيَصِلَ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾: جملةٌ تنزع من النار بعدها الزماني وتضعها أمام الضمير. ما دام المصير آتياً فهو قريب وإن طال العمر، وما دام يقيناً فهو أحق أن يُستعد له من أحداثٍ نظنها قريبةً وهي قد لا تقع. الإنسان يعيد ترتيب حياته لأجل موعدٍ دنيوي ربما ألغى، ويجمع المال لاحتمالٍ ربما لم يأت، ثم يغفل عن

موعِدٍ لا يتخلف. ليس الزهد أن نهجر الدنيا، بل أن نراها في
حجمها الصحيح إلى جوار الأبد.

وهكذا تختم الآية الثالثة مصير الرجل، لكنها تترك صورة
الأسرة لم تكتمل بعد؛ فأبو لهب لم يكن وحده في صناعة
العداوة، بل كان إلى جانبه قلب آخر ويدان أخريان ولسانٌ يحمل
الأذى ويزيد النار حطباً. ومن عدل القرآن أن المسؤولية لا
تدوب في رابطة الزواج، ولا تختفي المرأة خلف اسم زوجها، ولا
يحمل أحدُ ذنب الآخر؛ لذلك تنتقل السورة من أبي لهب إلى
امراته انتقالاً مباشراً: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾. هناك سنرى بيتاً
لم يتعاون على النجاة، بل تعاون على الهلاك، وزواجاً لم يطفئ نار
الشر، بل حمل لها الحطب.

الفصل الرابع

﴿وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾

حين يتحول الزواج من سكنٍ إلى شراكةٍ في الإثم

لم يكن أبو لهب وحده في طريق العداوة؛ فقد كان إلى جواره قلبٌ يشاركه الحقد، ولسانٌ يمد الخصومة بالكلمات، ويدان تجمعان أسباب الأذى وتضعانها في طريق الدعوة. ولهذا لم تنته السورة عند مصيره، بل عطف عليه امرأته: ﴿وَأَمْرَاتُهُ﴾، لتكشف أن الشر قد يكون مشروعاً عائلياً يتقاسم أصحابه أدواره، وأن البيت الذي لم يُبنَ على الإيمان قد يتحول من موضع سكنٍ ورحمةٍ إلى مركز تحريضٍ وإيذاء.

كانت امرأة أبي لهب أمّ جميل أروى بنت حرب، من بيتٍ ذي شرفٍ ومكانة في قريش، فلم تكن امرأةً مجهولةً لا تملك من أمرها شيئاً، بل كانت صاحبة حضورٍ وإرادة، اختارت أن تقف إلى جانب زوجها في حربه على النبي ﷺ. والقرآن لا يذكرها تابِعاً

يذوب في شخصية الرجل، ولا يعفيها لأن زوجها كان رأس
العداوة؛ بل يثبت لها مسؤوليتها المستقلة، ويذكر عملها ووصفها
ومصيرها. إنها لم تدخل السورة لأنها امرأة أبي هب فحسب، بل
لأنها كانت شريكةً في الفعل الذي استحقا به الوعيد.

وهنا يقرر القرآن أصلاً عظيمًا في المسؤولية: الإنسان لا يُحاسب
على رابطةٍ لم يخترها، بل على الموقف الذي اختاره داخلها. ليست
الزوجة ظلاً أخلاقياً لزوجها، ولا الزوج معذوراً بفساد زوجه؛
فكل نفسٍ تقف بين يدي الله بما كسبت. قد تكون المرأة زوجة
طاغيةٍ ثم تختار الإيمان، كما كانت امرأة فرعون، فلا يضرها كفر
أقرب الناس إليها؛ وقد تكون زوجة رجلٍ معادٍ للحق فتختار أن
تعينه على عدوانه، فتتحمل نصيبها من التبعة. القرب لا يسلب
الإرادة، والعلاقة لا تلغي المسؤولية، والإنسان لا ينجو لأنه تابع،
ولا يهلك بمجرد أنه قريب، بل بما رضي وعمل وأعان.

وقد كان الزواج في أصله آيةً من آيات الله، مبنياً على السكن
والمودة والرحمة؛ يجتمع فيه إنسانان ليكون كلُّ منهما عوناً للآخر
على احتمال الحياة، وتصحيح الضعف، واستكمال الخير. لكن

هذه العلاقة العظيمة يمكن أن تنقلب إذا فسدت الوجهة؛ فبدل أن يرد أحد الزوجين الآخر عن الظلم، يزينه له، وبدل أن يطفىء غضبه، يزيده اشتعالاً، وبدل أن يفتح له باب المراجعة، يغلقه عليه بتأييدٍ أعمى. عندئذ لا يعود البيت سكناً من الشر، بل يصبح سكناً للشر نفسه.

إن الوفاء للزوج لا يكون بإعانتته على هلاكه، والحب لا يصدق حين يزين للمحبوب باطله؛ فرب كلمة اعتراض صادقة أنفع للإنسان من ألف كلمة تأييد، ورب موقف حازم يرده عن الظلم أرحم به من مشاركة تظهر في صورة النصرة وهي تدفعه إلى الهاوية. من أحب إنساناً حقاً لم يسلمه لأسوأ ما فيه، ولم يجعل قربه منه وسيلةً لتغذية كبريائه، بل أعانه على أن يرى نفسه حين تعمى عنها نفسه.

لكن امرأة أبي لهب اختارت الوجه الآخر من العلاقة؛ لم تكن صوتاً يوقظ الضمير في بيت العداوة، بل كانت صوتاً يضاعف العداوة. اجتمع الزوجان على مقاومة النور، فصار التوافق بينهما لعنةً عليهما؛ لأن الاتفاق لا يكتسب قيمته من

مجرد الاجتماع، بل من الموضوع الذي اجتمعت عليه القلوب. قد يتحد الناس على الخير فيقوى بعضهم ببعض، وقد يتحدون على الباطل فيمنح كل واحدٍ منهم الآخر جرأةً إضافيةً على السقوط.

ومن أخطر آثار الشراكة في الشر أنها تخفف داخل النفس الشعور بالذنب؛ فالإنسان إذا وجد إلى جواره من يوافقه، ظن أن الموافقة دليل صحة، وربما استمد من تشجيع القريب طمأنينةً زائفة. يقول أحدهما ما يريد الآخر سماعه، فيدور الباطل بينهما حتى يفقدا القدرة على رؤيته بوصفه باطلاً. كل واحدٍ منهما مرآة مشوهة للآخر: لا تكشف عيوبه، بل تجميلها؛ ولا تدعوه إلى النجاة، بل تقنعه بأن الطريق إلى الهلاك هو عين الصواب.

وهكذا يصبح البيت المغلق على الكبر عالماً خاصاً يصنع منطقته ومفرداته وأعداره. يدخل الرجل وفي نفسه بقية تردد، فتستقبله الكلمة المحرصة فتقتلها؛ وتدخل المرأة وفي قلبها شرارة غضب، فيزيدها الزوج اشتعالاً؛ ثم يخرج الاثنان إلى الناس وقد أصبح الشر الذي كان خاطراً قراراً، والقرار الذي كان فردياً مشروعاً مشتركاً. وما أكثر المظالم التي بدأت في مجلسٍ خاص بكلمة

تزيين، وما أكثر الخصومات التي كان يمكن أن تنتهي لولا أن أحداً ظل يحمل إليها الخطب!

﴿حَمَّالَةَ الْخَطْبِ﴾: لم يقل القرآن إنها حملت خطباً مرة، بل جاء بصيغة المبالغة التي تصوّر تكرار الفعل حتى صار وصفاً ملازماً لها. لم يعد الحمل حادثةً عابرة، بل صار هويةً تُعرف بها. والإنسان إنما تُصاغ ملامحه الأخلاقية من الأفعال التي يكررها؛ فما يفعله مرةً قد يكون زلة، وما يصير عليه يتحول إلى عادة، وما يستسلم له طويلاً قد يصير اسماً له في ميزان الحقيقة.

كانت تحمل ما يؤذي النبي ﷺ، وذكر في التفسير أنها كانت تأتي بالشوك فتطرحه في طريقه، ليكتمل الإيذاء بين الزوجين: هذا يواجه الدعوة بالصد والتحقير، وهذه تجعل الطريق نفسه موضع أذى. وسواء حملت أغصان الشوك بيديها، أو حملت مع ذلك كلمات النيمة والتحريض بلسانها، فإن الصورة القرآنية تجمع الفعلين في معنى واحد: جمع ما يؤذي، ونقله إلى الموضع الذي يحقق فيه أذاه.

الخطب شيءٌ يُجمع ليلقى في النار فتزداد اشتعالاً؛ ومن هنا تجاوزت الصورة ظاهر الحمل إلى طبيعة الدور الذي أدته في الصراع. لم تكن هي صاحبة النار الأولى وحدها، لكنها كانت تمدها بما يقيها؛ تلتقط من هنا كلمة، ومن هناك شائعة، ومن مجلسٍ غضباً، ثم تجمع ذلك كله وتضعه في موقد الخصومة. إنها لا تخلق كل شرارة، لكنها لا تسمح لشرارة أن تموت؛ وكلما أوشكت نار العداوة أن تمخض حملت إليها حطباً جديداً.

وهذه وظيفة خطيرة قد يقوم بها إنسانٌ في كل زمان: ألا يبدأ الخصومة، لكنه يحرس بقاءها؛ وألا يبتكر الكذب، لكنه يحمله؛ وألا يضرب بيده، لكنه يهيئ الجو الذي يجعل الضرب ممكناً. وربما ظن أنه أقل جرماً لأنه لم يرتكب الفعل الأكبر، مع أنه كان الوقود الذي لولاه ما استمر الفعل. فليس الفاعل المباشر وحده مسؤولاً عن الشر، بل كل من هيا له، وزينه، وموَّله، ونقله، وبرره، وحمى صاحبه من يقظة ضميره.

و«الخطب» في صورته المادية أغصانٌ يبست وانقطعت عنها الحياة، ثم جمعت ليُستخرج منها اللهب؛ وفي هذا شبهٌ عجيب

بالكلمات الميتة التي تتناقلها الألسن: أخبارٌ منزوعةٌ من سياقها، وظنونٌ يابسةٌ لا ماء فيها من يقين، وأحقادٌ قديمةٌ يجري جمعها، حتى إذا اجتمعت أُلقيت بين القلوب فاشتعلت. النّام حَمال حطبٍ وإن لم تلمس يده غصناً؛ لأنه ينتقل بين الناس يحمل إلى كل قلبٍ ما يشعل غضبه على الآخر.

إن الكلمة قد تكون ماءً يطفئ النار، وقد تكون حطباً يزيدّها. يستطيع الإنسان أن يسمع الإساءة فيدفنها في صدره صيانةً للقلوب، ويستطيع أن يحملها إلى صاحبها مزينةً حتى يفتح بها باب فتنة. يستطيع أن يدخل مجلساً مشتعلًا فيقول كلمة عدلٍ تسكّن النفوس، ويستطيع أن يختار من الحديث أشدّه إثارةً ثم يضيف إليه من عنده ما يجعل الرجوع أصعب. وبين صانع السلام وحامل الحطب فرقٌ في وظيفة اللسان، قبل أن يكون فرقاً في الكلمات.

وحَمال الحطب يعيش على بقايا الخصومات؛ يبحث عن الجملة التي يمكن إساءة فهمها، وعن الحادثة التي يمكن تضخيمها، وعن الضعف الذي يمكن فضحه. لا يسره أن تهدأ القلوب؛ لأن

هدوءها يعطل الدور الذي صنعه لنفسه. وربما لبس التحريض لباس النصيحة، وزعم أنه ينقل الكلام حرصاً أو أمانة، بينما هو يستمتع خفياً بما يحدثه النقل من اضطراب. ليست كل حقيقة تُعرف ينبغي أن تُحمل، ولا كل كلمة قيلت ينبغي أن تُنقل؛ فالحكمة لا تسأل فقط: أهذا الكلام صحيح؟ بل تسأل: ما الخير الذي سيحدثه قوله؟ وما الشر الذي قد يفتحه؟

لقد كانت امرأة أبي لهب تحمل الخطب ضد النبي ﷺ، والحقيقة أن الخطب الذي جمعه لم يحرق نور الرسالة، بل عاد جزءاً من صورتها هي. مضت الأشواك التي ألقته، وبقي اسمها مرتبطاً بها؛ زال الطريق الذي وضعت فيه الأذى، وبقي الوصف يتلى: ﴿حَمَّالَةَ الْخَطَبِ﴾. أرادت أن تؤلم قلمي النبي في طريق عابر، فإذا بما صنعت يلاحقها في التاريخ والمصير. وهنا يكشف القرآن مفارقة الشر: كثيراً ما يظن المؤذي أنه يضع الأذى في طريق غيره، وهو في الحقيقة يضعه في سيرته.

الأشواك التي تلقى أمام أهل الحق قد تجرحهم، لكنها لا تجعل طريقهم باطلاً؛ وقد تبطئ خطواتهم، لكنها لا تغير وجهتهم. أما

حامل الشوك فيعود من كل رحلة وقد ازداد ظهره ثقلًا، وقلبه قسوة، وصحيفته حملاً. المظلوم يتجاوز الأذى ويواصل السير، وربما رفعت المحنة مقامه، لكن الظالم يحمل أثر ظلمه حتى يتوب أو يلقي جزاءه. الشر لا يستقر كله في ضحيته؛ إن نصيبه الأعمق يرجع إلى روح فاعله.

وما أقسى أن يختصر الإنسان عمره في وظيفة كهذه: حملاً لما يحرق، جامعاً لما يؤذي، ساعياً بين البيوت والقلوب بما يفسدها. لقد أعطى الله الإنسان قدرةً على الحمل ليحمل أمانة، أو علماً، أو رزقاً إلى محتاج، أو كلمةً طيبة؛ فإذا به يستخدم القدرة نفسها في حمل الخطب. المشكلة ليست في الطاقة التي مُنحت له، بل في اختياره لما يضعه على ظهره ويسير به إلى الناس.

لكل إنسانٍ حمولته التي يمضي بها في الحياة؛ فمن الناس من يحمل همَّ الإصلاح، ومنهم من يحمل آلام الآخرين ليخففها، ومنهم من يحمل العلم وينقله، ومنهم من لا يجد لنفسه دوراً إلا أن يحمل أخطاء الناس من مجلسٍ إلى مجلس. والحمولة التي يختارها الإنسان لا تبقى منفصلةً عنه؛ إنها تغيّر مشيته ونظرتَه ولغته، ثم تقدم

تعريفًا أخيرًا له. امرأة أبي هلب كان لها اسمٌ ونسبٌ ومكانة، لكن السورة تجاوزت كل ذلك واختارت من حياتها الجمولة التي لازمتها: ﴿حَمَّالَةَ الْخَطَبِ﴾.

لقد كانت أروى بنت حرب، وكان لها من شرف النسب في مقاييس قريش ما يجعلها موضع اعتبار؛ لكن القرآن لم يقل: صاحبة النسب، ولا صاحبة المال، ولا سيدة من سيدات قريش. تلك أوصاف اجتماعية تنتهي بانتهاء المجتمع الذي يمنحها، أما الفعل الأخلاقي فباقٍ لأنه متصلٌ بالعدل الإلهي. حين تسقط ألقاب الدنيا لا يبقى للإنسان إلا ما صنع: هذا حمل رحمة، وهذا حمل علمًا، وهذه حملت الخطب.

وفي اختيار «امراته» قبل وصفها إظهارًا لفداحة الانقلاب في وظيفة الزواج. كان المتوقع من القرابة الزوجية أن تكون سببًا في تخفيف الشر، فإذا بها صارت سببًا في مضاعفته. كان يمكن لها أن تقول لزوجها: إنك تعرف صدق ابن أخيك، فلا تكن أول من يخذله؛ وكان يمكن له أن يردها عن الأذى، فيحفظ لها

كرامتها ويحفظ لنفسه بقية مروءة؛ لكن كلاً منهما ترك الآخر
لأسوأ ما فيه، بل أعانه عليه.

وهنا تظهر مسؤولية المحيط القريب في تشكيل مصير الإنسان.
نحن لا نصنع أنفسنا منفردين تماماً؛ فالكلمات التي نسمعها كل
يوم، والوجوه التي تصادق على أفعالنا، والرفقة التي تحيط بنا،
كلها تشارك في تثبيت وجهتنا. وقد يكون أعظم عطاء يقدمه
القريب لنا أن يمنعنا من أنفسنا حين تندفع إلى الظلم، وأن يملك
شجاعة مخالفتنا حين تكون الموافقة خيانةً. إن الصديق الذي يصفق
لكل فعلٍ ليس وفياً بالضرورة، والزوج الذي يبرر كل خطأ لا
يحمي زوجه، والرفيق الذي يحمل لنا الخطب كلها همدت نار
غضبنا يدفعنا - وهو يزعم النصر - إلى مزيدٍ من الخسارة.

البيوت لا تُقاس بهدوء ظاهرها وحده، بل بنوع القيم التي
تُصنع داخلها. قد يكون البيت ساكناً في أعين الجيران، لكنه يمتلئ
في داخله بالغيبة والتحريض والكبر، ويتعلم فيه الأبناء أن
كرامتهم لا تكتمل إلا بإهانة غيرهم. وقد يكون البيت متواضعاً
قليل الأثاث، لكنه موضع رحمةٍ وذكٍ وعدل، يخرج منه الناس

أخف على العالم وأقرب إلى الخير. القيمة الحقيقية للبيت ليست فيما يستره من أجساد، بل فيما يبنيه من أرواح.

وفي بيت أبي لهب اجتمع النسب والمال، لكن السكينة غابت لأن العداوة ملأت المكان. ومن يظن أن المال وحده يصنع بيتاً لم يفهم معنى البيت؛ فالدار قد تتسع وتضيق النفوس، ويكثر الخدم ويغيب التراحم، وتزداد الزينة بينما تتكاثر في الزوايا أحمال الحطب المعنوي. البيت ليس جدراناً تحيط بالعائلة، بل أخلاقٌ تتشكل بين أفرادها؛ فإذا سكنه الإيمان صار ملاذاً، وإذا سكنه الحقد صار موقداً وإن كان أنخم بيوت المدينة.

ويكشف وصف ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ أن بعض الناس لا يكتفون باحتضان الشر في قلوبهم، بل يبذلون جهداً في خدمته. حمل الحطب يحتاج إلى بحثٍ وجمعٍ وربطٍ ونقل؛ أي إن العداوة تحولت عندها إلى عملٍ منظمٍ يستغرق طاقة. وهذا مما يثير الأسى في النفس: أن يمنح الله الإنسان ذكاءً ووقتاً وقوة، ثم ينفقها في صناعة الأذى. كم من طاقةٍ بشريةٍ هائلة تُهدر في التشويه

والتربص، ولو وجه بعضها إلى البناء لتغيرت بها حياة أناس
كثيرين!

إن الشر ليس دائماً انفجاراً أعمى؛ قد يكون جهداً دقيقاً وصبراً
طويلاً وتخطيطاً مستمراً، لكنه يظل شراً مهما كان متقناً. ليست
المهارة فضيلةً إذا انفصلت عن الغاية؛ فقد يكون الإنسان ماهراً
في جمع الأخبار، لكنه يستخدم مهارته في الفضيحة، وفصيحا
لكنه يسخر بلاغته للتضليل، وقوياً لكنه يجعل قوته في خدمة
الظلم. لا يكفي أن نسأل عن جودة ما نعمل، بل ينبغي أن نسأل
قبل ذلك عن حقيقة ما نعمل ولن ولماذا.

وتدل «حمالة» بصيغتها المشددة على ثقل الحمل واستمراره؛
وكأنها لا تحمل حزمةً واحدةً ثم تضعها، بل جعلت نفسها في
حركة دائمة بين الحطب والنار. وهذه صورة لكل نفسٍ أسرتها
الخصومة حتى لم يعد لها مشروعٌ إلا خصمها؛ تستيقظ عليه،
وتبحث عن عثراته، وتعيد تفسير كل أفعاله، وتجمع كل ما يمكن
أن يسيء إليه. تظن أنها تحاصره، بينما هي التي أصبحت محاصرةً
به؛ وتريد أن تؤلمه، فإذا بها تهب له وقتها ووعياها وسلامها.

العداوة إذا استحكمت تجعل الإنسان تابعاً لمن يعاديه؛ لا يملك أن ينساه، ولا أن يبني بعيداً عنه، ولا أن يرى العالم إلا من خلاله. وهكذا كان أبو لهب وامراته: الرسالة تمضي في بناء الإنسان، وهما يبددان حياتهما في محاولة صدها. محمد ﷺ يحمل القرآن، وهي تحمل الخطب؛ هو يضع في طريق البشرية نوراً، وهي تضع في طريقه شوكة؛ ثم انظر أي الحملين بقي وأي الطريقين انتصر.

كانت تحمل الخطب لتزيد نار العداوة، فجاءت الآية قبلها مباشرةً بالنار ذات اللهب؛ وكأن الخطب الذي حملته في الدنيا صار متصلاً بالنار التي تنتظرها في الآخرة. لقد حملت وقود الأذى، فصار الحمل شاهداً عليها وجزءاً من تصوير جزائها. وما جمعته لغيرها عاد إليها، وما أرادت أن تشعل به الطريق أمام الدعوة صار في البيان القرآني وقوداً لمصيرها.

هذا التناسب لا يعني أن كل تفاصيل العذاب من صنع الإنسان استقلالاً، بل يعني أن عدل الله يُظهر للمرء حقيقة اختياره في صورة الجزاء. من عاش يحمل أسباب الإحراق لا

يستوي بمن عاش يطفئ نيران الفتنة؛ ومن أنفق عمره في الجمع بين
القلوب لا يستوي بمن بددها بالنيمة. الآخرة ليست عالماً منفصلاً
أخلاقياً عن الدنيا، بل هي انكشافٌ كاملٌ لقيمة ما صنعناه هنا.
وفي الآية تحذيرٌ للسان بقدر ما فيها تحذيرٌ لليد؛ فالكلمات
حطب، والإشاعات حطب، والالتهامات التي تُرمى بلا بينة
حطب، والمقاطع المبتورة من سياقاتها حطب، والتعليقات التي
تُكتب لإشغال الناس بعضهم على بعض حطب. وقد اتسعت في
الأزمة المتأخرة وسائل حمل الحطب؛ فلم يعد النمام يحتاج إلى أن
يمشي بين مجلسين، بل يستطيع أن يحمل كلمةً واحدةً إلى آلاف
القلوب في لحظة. اتسعت القدرة، لكن المسؤولية اتسعت معها؛
فكل من أعاد باطلاً، أو نشر ظلماً، أو زاد فتنةً، حمل بقدر ما
أسهم.

ولا يعني الإنسان من المسؤولية أن يقول: لم أكتب الخبر، إنما
نقلته؛ فحمالة الحطب لا تصنع الشجرة التي أخذ منها الحطب،
لكنها اختارت أن تجمعها وتحمله وتلقيه في النار. النقل فعلٌ
أخلاقي له مسؤوليته، وليس حياً ميكانيكياً. الذي ينقل الكلمة

يُهبها حياةً جديدةً ومدًى جديداً، وقد يصبح ضرره أشد من ضرر قائلها الأول. ولذلك يحتاج المؤمن إلى ورع في المشاركة والنشر كما يحتاج إلى ورع في الإنشاء والقول.

وإذا كان الناس يحملون الخطب، فإنهم يستطيعون كذلك أن يحملوا الماء؛ أن ينقلوا كلمةً تصلح، وأن يستروا زلة، وأن يطفئوا غضباً، وأن يردوا غيبةً، وأن يمنعوا شائعةً عند حدودهم. ليس العجز عن الشر وحده فضيلة، بل القدرة على إيقاف انتقاله. قد تصل إليك كلمةٌ مشتعلة، فتكون أنت آخر موضع تبلغ إليه؛ تموت عندك لأنك رفضت أن تكون حاملها. وهذا من أعمال الإصلاح الخفية التي لا يراها الناس، لكن الله يعلم كم من نارٍ لم تشتعل لأن قلباً تقيّاً امتنع عن حمل حطبها.

إن سورة المسد لا تسمح للقارئ أن يتبرأ من امرأة أبي لهب ثم يمارس وظيفتها بصورة جديدة. قد لا يحمل شوكةً في يده، لكنه يحمل في هاتفه ما يؤذي الأبرياء؛ وقد لا يدخل بيتاً بالنسيئة، لكنه يدخل إلى القلوب عبر الكلمات المنشورة؛ وقد يرفع شعار الدفاع عن الحق، بينما طريقته مملوءة بالكذب والتشهير. ليست العبرة

بأسماء الأدوات، بل بوظيفتها الأخلاقية: هل تحمل نوراً أم
حطباً؟ هل تبقى الكرامة أم تشعل الخصومة؟

لقد اختارت امرأة أبي لهب أن تجعل مكانتها وطاقها في
خدمة العداوة، فلم يحفظ لها نسبها ذكراً جميلاً، ولم يمنع عنها
شرف بيتها حكم الله. وفي هذا عدلٌ يحزر الإنسان من وهم
الطبقة والجنس والقربة؛ فالمرأة تستطيع أن تبلغ بالإيمان مقاماً لا
يلغيه كثيرٌ من الرجال، وتستطيع باختيارها كذلك أن تهبط.
القرآن لا يجامل أحداً في ميزان الحق، ولا يظلم أحداً بسبب
هويته؛ وإنما يضع العمل في موضعه ويكشف مسؤوليته.

﴿وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾: بضع كلماتٍ رسمت امرأةً وبيتاً
ووظيفةً أخلاقيةً ومصيراً. امرأةٌ كان يمكن أن تكون عوناً على
الخير، فصارت عوناً على الشر؛ وبيتٌ كان يمكن أن يكون
موضع حمايةٍ للرسالة، فصار مصدر أذى؛ وطاقَةٌ كان يمكن أن
تحمّل الرحمة، فاختارت أن تحمّل الشوك؛ ولسانٌ كان يمكن أن
يطفىء الخصومة، فحمل إليها الحطب.

غير أن الصورة لم تكتمل بعد؛ فالخطب الذي تحمله يحتاج إلى ما يُربط به، والعنق الذي ربما حمل زينة الدنيا سيظهر في الآية الأخيرة محاطاً بعلامة المهانة والجزاء: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ﴾. هناك ينتقل المشهد من الحمولة إلى الحبل، ومن الفعل إلى أثره، ومن اليد التي تجمع الخطب إلى العنق الذي يحمل قيده، ليبلغ بناء السورة نهايته المهيبة.

الفصل الخامس

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ﴾

حين تنقلب الزينة قيداً ويعود الحبل إلى حامله

تبلغ سورة المسد ذروتها التصويرية في آيتها الأخيرة؛ فبعد اليدين اللتين تبتئا، والمال الذي عجز، والنار ذات اللهب، والمرأة التي حملت الحطب، تقترب الصورة حتى تقف عند العنق، حيث الحبل الملف: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ﴾. إنها خاتمة قصيرة في كلماتها، مهيبة في مشهدها، تجمع الإذلال والعذاب والتناسب بين العمل والجزاء؛ فالتى حملت الحطب وربطت حزمه لتلقيها في طريق الأذى، صار الحبل في جيدها، وتحولت الأداة التي استعانت بها على حمل الشر إلى علامة من علامات مصيرها.

لم تقل الآية: «في عنقها»، مع أن العنق هو المراد، بل اختارت كلمة ﴿جِيدِهَا﴾، والجيد لفظٌ يُستعمل غالباً حين يُذكر العنق في موضع الجمال والزينة. كأن البيان القرآني يستحضر المنطقة التي

تعلّق فيها القلائد، ويختار لها هذه المرة حبلاً من مسد. موضع الزينة صار موضع قيد، والمكان الذي كانت المرأة تتجمل به أمام الناس أصبح في مشهد الجزاء حاملاً لعلامة المهانة. وما أعجب أن تنقلب المعايير حين تسقط زينة الدنيا ويظهر جوهر العمل؛ فالإنسان قد يضع على ظاهره ما يجمله، لكن الذي يحدد صورته الأخيرة ليس ما علقه على جسده، بل ما استقر في قلبه وخرج من جوارحه.

إن الجسد في الدنيا يستطيع أن يحمل صورة لا تطابق الباطن؛ وجهه جميل يخفي قلباً ممتلئاً بالحق، وثوبٌ فاخر يستر نفساً فقيرة من الرحمة، وعنقٌ تحيط به الجواهر بينما ينطلق منه صوتٌ يحرّض على الأذى. لكن الآخرة مقام انكشاف، تتراجع فيه الزخارف، وتظهر المعاني التي صنعتها الأعمال. ليست القضية أن الجمال مذموم، ولا أن الزينة خطيئة؛ بل أن الزينة لا تطهر قلباً فاسداً، ولا تغير حقيقة الإنسان عند الله، ولا تمنع عنه عاقبة ما اختار.

وقد كان مجتمع قريش يزن الناس بالأنساب والأموال والمظاهر، فجاء القرآن ليكشف المرأة بعيداً عن كل ما كانت تُعرف به بين قومها. لم يبق من شرف البيت الذي انتسبت إليه، ولا من مكانتها، ولا من زينتها، إلا الصورة التي صنعها عملها: حَمَّالَةٌ حَطْبٍ، في جيدها جبلٌ من مسد. إن الوحي لا يخدع ببريق الواجّهات؛ ينفذ إلى الوظيفة الأخلاقية التي اختارها الإنسان، ثم يمنحه وصفه الحقيقي. قد تمنح المجتمعات ألقاباً كبيرة لمن لا يحملون في أرواحهم معنىً كبيراً، لكن ميزان الله لا يتأثر بما اصطلح الناس على تعظيمه.

﴿فِي جِيدِهَا﴾: قدمت الآية موضع الجبل قبل ذكر الجبل نفسه، فكأن العين تُوجّه أولاً إلى الجيد، ثم تفاجأ بما استقر فيه. يتطلع السامع إلى العنق الذي هو موضع القلادة، فإذا به يرى ﴿جَبَلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾. وفي هذا الترتيب قوة تصويرية تجعل المشهد يُبنى أمام الوعي جزءاً جزءاً: الجيد أولاً، ثم الجبل، ثم مادته المفتولة المحكّمة. وكل كلمة تزيد القيد ظهوراً وخشونة.

ولم تقل الآية: «على جيدها»، بل قالت: ﴿فِي جِيدِهَا﴾، وهو تعبيرٌ يوحى بشدة اتصال الحبل بالعنق وإحاطته به، حتى كأنه داخلٌ في موضعه لا ينفصل عنه. ليست قلادةً تلبس ثم تُخلع، ولا حبلًا عارضًا يمكن الإفلات منه؛ إنها صورة الثبات واللزم. فالعمل الذي طالما لازم صاحبه في الدنيا يظهر في الآخرة أثره ملازمًا له، والإنسان الذي أصرَّ على اختياره حتى مات عليه يلقي ما يناسب هذا الإصرار من جزاء.

إن الإنسان يستطيع في الدنيا أن يبتعد بجسده عن موضع جريمته، لكنه لا يستطيع أن يخرج من أثرها في نفسه إلا بتوبة صادقة. قد يطوي المكان، ويمحو الرسالة، ويخفي الدليل عن أعين الناس، لكنه يحمل ما صنع في داخله. الذنب الذي لم يُتَّب منه لا يبقى حادثةً خارجيةً انتهت، بل يصير حملًا في الصحيفة، وأثرًا في القلب، وحقيقةً يعلمها الله. ومن هنا كان الحبل في جيدها صورةً لشيءٍ صنعته طويلًا حتى عاد ملازمًا لها.

﴿حَبْلٌ﴾: والحبل في أصله أداة وصلٍ وربطٍ وحمل؛ لا يحمل في ذاته قيمةً أخلاقية، وإنما تتحدد قيمته بما يُستخدم له. قد يكون

الحبل سبب نِجاةٍ لمن يتعلّق به، وقد يكون قيداً يمنع الحركة، وقد تُربط به حزمة خير، وقد يُستخدم لحمل الحطب والأذى. الأدوات محايدةٌ حتى تدخلها النيات وتوجهها الأفعال، والإنسان هو الذي يمنح الأشياء وظيفتها الأخلاقية. لكن ما يستخدمه المرء في الشر قد يعود عليه أثره؛ ليس لأن الأداة تنتقم، بل لأن عدل الله لا يترك العمل بلا جزاء.

كانت حَمَّالة الحطب تحتاج إلى حبلٍ تجمع به ما تحمل؛ فالحطب المتفرق لا يسهل نقله حتى يضمّ بعضه إلى بعض وتلتف حوله عقدةٌ محكمة. وكأنّ السورة ترينا أن الشر، مثل حزمة الحطب، يُجمع من أجزاء صغيرة: كلمةٌ هنا، وشائعةٌ هناك، وموقف تحريض، وخاطر حسد، ورضاً بظلم، وتبريراً لعدوان؛ ثم يأتي الإصرار فيربط هذه الأجزاء حتى تصبح مشروعاً ثقيلاً يحمله صاحبه. ليس كل هلاكٍ يبدأ بجريمةٍ ضخمة؛ قد يبدأ بخيوطٍ دقيقةٍ تتكرر وتلتف، حتى تصبح حبالاً.

إن الحبل نفسه يتكون من أليافٍ رفيعةٍ لا تكاد واحدةٌ منها تقوى على شيء، لكنها حين تُقتل وتُتكرر وتشتد تصبح قيداً متيناً.

وكذلك العادات الأخلاقية: الفعل الصغير إذا تكرر ولم يُراجع قد يفتل حول القلب خيطاً، ثم تأتي المرة الثانية والثالثة، حتى يجد الإنسان نفسه مربوطاً بما كان يظن أنه يملكه. يبدأ الحقد شعوراً عابراً، ثم يغذيه صاحبه بالتذكر والتأويل، ويحدث به الآخرين، ويبني عليه المواقف، حتى لا يعود الحقد ضعيفاً في نفسه بل يصبح سيداً عليها.

وهذه من أخطر سنن التكوين النفسي: أن الإنسان لا ينتقل غالباً من الحرية إلى القيد دفعةً واحدة، بل يسمح للخيط الأول أن يلتف لأنه ضعيف، ثم يستين بالثاني، حتى يكتمل الحبل. قد يقول الكلمة الظالمة أول مرةٍ وضميره يقاومه، ثم يكررها فتصير أسهل، ثم تصبح جزءاً من لغته، ثم لا يعود يشعر أنها ظلم. وما كان في البداية فعلاً يختاره يتحول في النهاية إلى عادةٍ تقوده؛ ومن لم يقطع خيط الشر في بدايته قد يعجز عن فك حبله بعد اشتداده.

﴿مَنْ مَسَدٍ﴾؛ والمسد ما قُتل وأُحْكَم من الليف أو غيره، وقيل هو حبلٌ من ليف النخل شديد القتل. والكلمة في صوتها ومعناها

تحمل إحساس الخشونة والقوة والالتواء؛ ليس جبلاً ناعماً للزينة، بل جبلٌ مفتولٌ مُحْكَمٌ يلائم حمل الخطب ويلائم صورة العذاب. إن الليف حين تتفرق خيوطه يبدو ضعيفاً، فإذا جُمع وقُتل صار قادراً على الربط؛ وهكذا جمعت امرأة أبي لهب أفعال العداوة الصغيرة وقتلتها بالإصرار حتى صار لها من مجموعها قيد.

والمسد لا يصير جبلاً إلا بعملية قتلٍ متكررة؛ يلتوي الخيط حول الخيط، ثم يشتد بعضه ببعض. وفي هذا معنى تأملي يضيء طبيعة الباطل حين يستقر في النفس: فهو لا يأتي دائماً في صورة صريحة واحدة، بل يقتل صاحبه بين شهوةٍ وكبرٍ وحسدٍ ومصلحة. قد يبدأ برفض الحق لأنه ثقیلٌ على النفس، ثم يبحث العقل عن مبررات الرفض، ثم تتحول المبررات إلى خطاب، والخطاب إلى خصومة، والخصومة إلى أذى، والأذى إلى هوية. وفي النهاية يقف الإنسان مربوطاً بسلسلةٍ صنع حلقاتها من تنازلاته المتتابعة.

غير أن الآية لا تترك صورة الجبل في ميدان المجاز وحده؛ فالجبل المذكور جزءٌ من خبر الجزاء الذي أخبر الله به، وقد حمله

المفسرون على جبل العذاب في الآخرة، كما ارتبط بعملها في حمل الحطب والشوك في الدنيا. والتأمل في مناسبة الصورة لا يجوز أن يلغي حقيقتها الغيبية؛ فنحن نؤمن بما أخبر الله، ونقف عند حدود علمنا بتفاصيله، ونرى في الوقت نفسه الحكمة الظاهرة في مجيء الجزء على هيئة تناسب العمل.

لقد حملت الحطب في الدنيا اختياراً، فصار الحبل في جيدها جزءاً، وكانت تسعى بالحزمة لتؤدي غيرها، فغدت هي المربوطة بها. انقلبت من حاملة تتحكم فيما تحمل إلى مقيدة بما حملت؛ وهذا التحول يكشف وهم السيطرة الذي يصاحب الشر. يظن المؤذي أنه سيد أدواته، وأنه يستطيع استخدامها ثم طرحها متى شاء، لكنه لا يرى أنها تترك أثرها فيه وتنسج حوله قيوداً خفية. من يستخدم الكذب يظن أنه يملك الكذبة، ثم يصبح محتاجاً إلى كذباتٍ أخرى لحمايتها؛ ومن يستخدم الحقد يظن أنه يوجهه إلى خصمه، ثم يجد أن الحقد هو الذي صار يوجه أيامه.

إن كل شرٍّ يمنح صاحبه لحظة شعورٍ بالقوة، ثم يأخذ من حرته شيئاً. الغضب للباطل يشعر الإنسان أنه قادرٌ على الإيذاء،

لكنه يسلبه القدرة على الإنصاف؛ والكبر يمنحه لذة التعالي، لكنه يحرمه من نعمة الاعتذار؛ والحسد يجعله مشغولاً بإسقاط غيره، لكنه يحرمه من الاستمتاع بما في يده. وهكذا تتشكل الجبال الداخلية قبل أن يظهر الجبل في المصير. يظن الإنسان أنه يقيد الآخرين بأذاه، بينما تتكون العقد حول قلبه.

والتححر الحقيقي ليس أن يفعل المرء ما يشاء بلا حدود، بل أن يملك القدرة على مقاومة أسوأ ما تشتهيه نفسه. الذي لا يستطيع أن يكف لسانه عن النيمة ليس حراً، وإن لم يمنعه أحد؛ والذي لا يقدر أن يتراجع عن الخصومة بعد ظهور الحق مقيداً، وإن بدا متسلطاً؛ والذي جعل المال شرط كرامته صار عبداً لما يملك. أبو لهب وامرأته ظهرا في مكة صاحبي قوةٍ وقدرةٍ على الحركة، لكن سورة المسد كشفت الجبال الخفية التي كانا يمضيان بها إلى مصيرهما.

وفي ذكر الجيد تذكيرٌ بأن مواضع التكريم الظاهري لا تمنع المهانة إذا فسدت النفس. العنق موضع رفع الرأس، وعلامة الاعتزاز، والإنسان المتكبر يمد جيده كأنه يعلن تفوقه على الناس؛

فإذا الحبل يحيط بالمكان الذي ظهر فيه الكبر. ليست المشكلة في أن يرفع الإنسان رأسه كرامةً، فقد كرمه الله، بل في أن يرفعه استعلاءً على الحق واحتقاراً للخلق. ومن لم يخفض نفسه للحق قد تأتبه الحقيقة في صورةٍ تكسر وهم الرفعة الذي عاش به.

إن التواضع ليس إذلاً للنفس، بل تحريراً لها من الحبل الذي ينسجه الكبر. المتواضع يستطيع أن يعترف، ولذلك يستطيع أن يتغير؛ أما المتكبر فيرى الاعتراف هزيمةً، فيستمر في الخطأ حتى يهلك كي لا يقول: أخطأت. لقد كان يمكن لأبي هب وامراته أن يقطعا طريق التباب بكلمة إيمانٍ وتوبة، لكن الكبرياء جعلهما يفضلان الثبات على الباطل على الرجوع إلى الحق. وما أقسى القيد الذي يجعل الإنسان يرى النجاة أمامه ثم يرفضها لأنها تتطلب منه أن يخني لله!

والحبل في الآية مفرد، لكنه حصيلة خيوط كثيرة؛ كما أن المصير واحد، لكنه حصيلة أيامٍ وأقوالٍ وأفعال. الإنسان يعيش عمره يوماً بعد يوم، وقد يظن أن كل يومٍ ينتهي مستقلاً، لكن الأيام تُقتل معاً لتصنع سيرته. ليست السيرة ما يكتبه المؤرخون

فحسب، بل الحبل المعنوي الذي يجمع ما تفرق من اختياراتنا
ويقدمه في صورةٍ واحدة. وحين يلقي الإنسان ربه يرى حياته لا
كساعاتٍ متناثرة، بل كوجهةٍ مكتملة.

ولهذا يحتاج المؤمن إلى مراجعة الخيوط قبل أن تصير حبلاً:
أيُّ الأفكار يكررها في نفسه؟ وأيُّ الكلمات اعتاد نقلها؟ وأيُّ
شعورٍ يسمح له أن يستقر؟ وأيُّ رفقةٍ تفتل معه أسباب الخير أو
الشر؟ فقد يكون الخيط الأول هيناً يمكن قطعه باستغفارٍ صادق،
لكن تركه والإضافة إليه يحولّه إلى قيدٍ ثقیل. التوبة تقطع الحبل
قبل أن يكتمل؛ لا تحو فعلاً فحسب، بل تعيد للإنسان حريته من
الهوية التي كان الذنب يصنعها له.

وتقف الآية أمام افتتان الإنسان بالزينة الخارجية، فتضع إلى
جوار القلادة المحتملة حبل المسد. ليست كل قلادةٍ كرامة، ولا
كل زينةٍ دليل سعادة، ولا كل جيدٍ تحيط به الجواهر ناجياً؛
فرب عنقٍ خالٍ من الذهب لكنه انحنى لله فارتفع، ورب عنقٍ
أثقلته الحلي لكنه استعلى على الحق فانتهى إلى القيد. قيمة الجيد

ليست فيما يحيط به، بل للذي يخضع له؛ فإن خضع لله تحرر من عبودية الأشياء، وإن استكبر على الله صار أسير ما يزينه.

وكم ينفق الإنسان من عمره في تحسين الصورة التي ستفنى، بينما لا يمنح باطنه إلا بقايا اهتمامه! يراقب أثر الزمن في وجهه، ولا يراقب أثر الحقد في قلبه؛ يقلقه أن تضيع زينته، ولا يقلقه أن تضيع رحمته؛ يختار ما يضعه على عنقه بعناية، ولا يسأل عما يفتله كل يوم حول روحه. لا يذم القرآن عناية الإنسان بظاهره، وإنما يدعو ألا يجعل الظاهر ستاراً ينسى وراءه الحقيقة.

لقد أرادت امرأة أبي لهب أن تحط من قدر النبي ﷺ، فانتهت السورة بصورة هي غاية في الخط من كبريائها: ليست سيدة قریشية مرفوعة الجيد، بل حَمالة حطب في جيدها جبل. غير أن هذا الجزء لم ينقصها حقاً لم يكن لها؛ بل كشف ما اختارته لنفسها حين جعلت كرامتها في معاداة أكرم الخلق ﷺ. من طلب الرفعة بمقاومة الحق لم ينج إلا المهانة، ومن ظن أن إهانة الآخرين ترفعه أخطأ معنى الرفعة؛ فالكرامة لا تُبنى من كسر الناس، بل من خضوع النفس لله وصيانتها عن الظلم.

ويجتمع في الآية الفعل وأداته وأثره: حمل الحطب فعلها،
والجبل أداتها، والجيد موضع أثرها. وبذلك تغلق السورة الدائرة
التي بدأتها باليدين: يدان تبتان في أولها، وجيدٌ يحيط به الجبل في
آخرها؛ وبين اليد والجيد مالٌ ونارٌ وحطب. كأن الجسد كله
دخل في شهادة العمل: اليد بطشت وجمعت، والجيد حمل القيد،
والإنسان صار محاطاً بما صنع.

لقد بدأت السورة بالفعل: ﴿تَبَّتْ﴾، وانتهت بالشيء:
﴿مَسَدٌ﴾؛ بدأت بحكمٍ على الحركة، وانتهت بصورةٍ ساكنةٍ محكمةٍ
لا انفلات منها. في البدء يدان تتحركان في الأرض، وفي الختام
جبلٌ ثابتٌ في الجيد؛ وبين الحركتين تاريخٌ من الاختيار. وهذه
الحركة من النشاط إلى القيد هي قصة الشر نفسه: يبدأ بوعد
الإنسان بالقوة والحرية، وينتهي بسلب قوته وحريته.

الشريقول لصاحبه: افعَلْ ما تشاء، لا تخضع لحق، لا تستمع
لنصيحة، واجعل قدرتك قانونك؛ فيستجيب له ظاناً أنه يتحرر، ثم
يكشف أن الشهوات التي أطاعها صارت سادته، وأن الكبرياء
التي دافع عنها منعت عنه الرجوع، وأن العداوة التي اختارها

التفت حول حياته. إنه يخرج من عبودية الحق التي هي عين الكرامة، فيقع في عبودياتٍ لا تنتهي. والحبل في الجيد هو الصورة المرئية لحقيقةٍ بدأت يوم توهمت النفس أن الاستكبار حرية.

وفي المقابل، فإن العبودية لله تفك الحبال؛ لأنها تحرر الإنسان من الحاجة إلى تعظيم الناس، ومن الخوف على صورةٍ زائفة، ومن التعلق بالمال، ومن عبودية الحقد. حين يعلم أن كرامته من الله يستطيع أن يتواضع بلا شعورٍ بالنقص، ويعتذر بلا انهيار، ويعفو بلا مذلة، وينفق بلا خوفٍ مرضي، ويقبل الحق ولو جاء من خصم. لا يعود محتاجاً إلى حمل الخطب كي يثبت وجوده، لأنه وجد معنى وجوده في القرب من ربه.

إن الحبل قد يربط الخطب، لكنه يربط حامله كذلك؛ وهذه من مفارقات السورة الكبرى: ما حملته المرأة لتقيد به طريق غيرها عاد قيذاً عليها. كل مشروع ظلمٍ يحمل في داخله انقلاباً مماثلاً؛ فالمراقب للناس يصير أسير مراقبتهم، والمشوّه لسمعتهم يصير مرهوناً للكذب الذي صنعه، والمحرض على الكراهية لا

يعود قادراً على العيش من دون عدو. يضيق العالم حوله حتى لا يبقى فيه إلا الحطب الذي يجمعه والنار التي يغذيها.

وإذا كانت امرأة أبي هب قد حملت الحطب المادي والمعنوي، فإن الآية تدعونا إلى أن نسأل عن أحمالنا الخفية. قد يحمل الإنسان ذكراً إساءة سنواتٍ طويلة، يضيف إليها كل يوم تفسيراً جديداً، حتى تصبح حلاً يخنق سلامه. وقد يحمل خصومةً انتهى سببها، لكنه يرفض وضعها لأن هويته ارتبطت بها. وقد يحمل كلام الناس عنه، فيعيش عمره مقيداً بنظراتهم. وليس كل حمل واجباً؛ بعض الأحمال لا يطلب الله منا الصبر على إبقائها، بل يطلب أن نلقها بالتوبة والعفو والثقة به.

لكن أخطر الأحمال ما كان ظمناً للآخرين؛ لأن التخلص منه لا يكون بمجرد راحة نفسية، بل برد الحقوق وتصحيح الأثر وطلب المغفرة. من حمل حطب فتنة ثم أراد النجاة فليطفي ما أشعل ما استطاع، وليصحح الكذب حيث نشره، وليجمع القلوب التي أسهم في تفريقها. التوبة الصادقة ليست شعوراً خاصاً

بين الإنسان ونفسه حين يتعلق الذنب بحقوق الناس؛ بل عملٌ يعاكس اتجاه الخطيئة.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ ليست صورةً منفصلةً عن حياتنا، وإن كانت نازلةً في امرأةٍ معلومة؛ إنها تحذر من كل خيطٍ نسمح له أن يلتف حول الضمير، ومن كل شرٍّ نظن أننا نحمله بينما هو يحملنا، ومن كل زينةٍ خارجيةٍ نخدعنا عن حقيقة الباطن. وتخبّرنا أن الإنسان سيظهر في النهاية لا كما أراد أن يراه الناس، بل كما صنعت أعماله.

لقد كان بوسعها أن تحمل إلى الناس كلمة رحمة، وأن تحمل عن زوجها حطب الكبر بدل أن تحمله إليه، وأن تجعل جيدها خاضعاً لله بدل أن يحيط به قيد المصير؛ لكن الإنسان لا يُعطى نهايته منفصلةً عن اختياراته. اختارت أن تكون حَمَّالة الحطب، فجاء الحبل في جيدها؛ واختار زوجها أن يكون لهباً على الدعوة، فجاءت النار ذات لهب؛ واجتمعا على الأذى، فجمعتما السورة في الوعيد كما جمعهما البيت في العداوة.

وهكذا تنتهي آيات سورة المسد، لكن أسئلتها لا تنتهي: ماذا تفعل اليد بما مُنحت من قوة؟ وفيْمَ يُستخدم المال؟ وأي نارٍ يغذيها القلب؟ ومن يعين الإنسان في بيته: أيعينه على النجاة أم يحمل إليه الحطب؟ وما الخيوط التي يفتلها كل يومٍ حول روحه؟ إنها سورةٌ من خمس آيات، لكنها تعرض سيرة سقوطٍ كاملة: يدٌ امتدت، ومالٌ اجتمع، ونارٌ انتظرت، وحطبٌ حُمِل، وحبلٌ اشتد.

وما يزال وراء التدبر التفصيلي فصلٌ جامعٌ نرى فيه وحدة السورة، وهندستها الداخلية، وقوانينها الكبرى في النسب والمال والزواج والإعلام الأخلاقي والمصير؛ ثم تأتي الخاتمة لتعيد صوت السورة إلى قلب القارئ: ليست المسألة أن نعرف كيف هلك أبو لهب وامرأته، بل أن نعرف كيف ننجو نحن من اليد التي تثاب، والمال الذي لا يغني، والحطب الذي يُحمل، والحبل الذي يُفتل.

الفصل السادس

هَدَسَةُ التَّبَابِ فِي سُورَةِ الْمَسَدِ

حين تنهار حصون القوة واحداً بعد آخر ولا يبقى للإنسان إلا
حقيقة اختياره

بعد الوقوف مع آيات السورة آيةً آيةً، يحق لنا أن نعود إليها بوصفها بناءً واحداً، لا جملاً متجاورةً ولا مشاهد متفرقة؛ فسورة المسد، على قصرها، محكمةٌ إحكام دائرةٍ تبدأ بالحركة وتنتهي بالقيء، وتفتح بيدين تعملان وتغلق على جيدٍ يحيط به الحبل. وبين اليد والجيد تمر السورة بالمال والكسب والنار والخطب، لتصوغ في خمسة مقاطع قصيرة سيرة بيتٍ كامل، وشبكة قوة اجتماعية، ومسارَ عداوة، ونهايةَ إنسانين جمعتهما القرابة الزوجية كما جمعتهما الإصرار على الباطل.

إنها لا تروي كل ما فعله أبو لهب، ولا تجمع أخبار أيامه، ولا تستقصي صور أذاه؛ لأن القرآن لا يحتاج إلى كثرة التفاصيل

ليصيب جوهر الشخصية. قد يكتب المؤرخ صفحاتٍ طويلةً ليصف رجلاً، ثم تأتي آيةٌ واحدة فتضع اليد على المركز الخفي الذي يفسر كل شيء. لقد اختصر القرآن أبا لهب في وجهته: يدان تعملان ضد الحق، ومالٌ يتوهم صاحبه أنه يحميهِ، ونارٌ تنتهي إليها الحركة. واختصر امرأته في وظيفتها: تحمل الخطب، وفي جيدها الحبل الذي يناسب حملها.

هذه القدرة على الاختصار ليست حذفاً للمعنى، بل تكثيفٌ له؛ فكل كلمةٍ في السورة تفتح دائرةً واسعة. «اليدان» تحملان معنى القوة والعمل والكسب، و«المال» يحمل معنى الحصانة والاستغناء، و«اللهب» يصل الكنية بالمصير، و«الخطب» يجمع الأذى المادي والتحريض المعنوي، و«المسد» يجمع الربط والحمل والقيود. لا توجد كلمةٌ محايدة في هذا البناء؛ كل لفظة تؤدي وظيفةً في رسم الشخصيتين، وفي الوقت نفسه تتصل بما قبلها وما بعدها حتى يبدو المشهد كله قطعةً واحدة.

سورة الشخص ونموذج الإنسان

نزلت السورة في أبي لهب وامرأته، وتعيين الشخصين جزءاً من معناها لا يجوز إلغاؤه؛ فالقرآن لا يتحدث هنا عن شرٍّ غامضٍ بلا أصحاب، بل يسمي رجلاً معروفاً بكنيته، ويشير إلى امرأته، ويعلن مصيرهما. إن للشرفاعلين، وللمواقف أسماء، والمسؤولية لا تذوب في عباراتٍ عامةٍ تسمح للجميع بالفرار. ومن العدل أن يُنسب الفعل إلى صاحبه كما يُنسب الخير إلى أهله، وأن لا يتحول الكلام عن السنن إلى ستارٍ يخفي الأيدي التي صنعت الألم.

لكن تعيين أبي لهب لا يحبس السورة فيه؛ فالقرآن حين يذكر شخصاً يخلد من خلاله نموذجاً، وحين يعرض واقعةً يفتح منها نافذةً على قانون. أبو لهب فردٌ معلوم، لكنه يمثل كل إنسان عرف الحق ثم حاربه لأن قبوله يهدد كبرياءه أو مصلحته؛ وامرأته فردٌ معلوم، لكنها تمثل كل من جعل قربه من صاحب الباطل وسيلةً لتزيينه والإعانة عليه. والخطب حطبٌ حقيقيٌّ حملته في سياق أذاها، وهو كذلك صورةٌ متجددة لكل كلمةٍ تحمل نار الخصومة من قلبٍ إلى قلب.

لا يكون وفاء التفسير بأن نقصر الآية على لحظتها حتى لا تعود قادرةً على مخاطبتنا، كما لا يكون عمق التدبر بأن نحوَّأبأ لهب من السورة ونحوِّله إلى رمزٍ لا تاريخ له. الطريق الصحيح أن نثبت الأصل ثم نبصر الامتداد؛ نعرف فيمن نزلت، ولماذا نزلت، وما دلالة ألفاظها، ثم نسأل: أين يتكرر هذا الموقف في النفس والمجتمع؟ بذلك يبقى النص أميناً لسياقه وحيّاً في أثره.

إن أبأ لهب لم يتحول إلى نموذجٍ لأنه كان الخصم الوحيد للدعوة؛ فقد عادها كثيرون ثم أسلم بعضهم وحسن إسلامه، وإنما صار صورته القرآنية بسبب الإصرار الذي أغلق عليه باب الرجوع حتى انتهى عمره. المشكلة ليست أن يكون للإنسان ماضٍ مظلم؛ فما أكثر من أضاءات التوبة ماضيهم، بل المشكلة أن يجعل من الظلمة هويةً يدافع عنها. الفارق بين التائب والهاالك ليس أن الأول لم يخطئ، بل أنه لم يمنح خطأه الكلمة الأخيرة في حياته.

انهيار دوائر الحماية

تتحرك السورة عبر دوائر الحماية التي ظن أبأ لهب أنها تحيط به، ثم تسقطها دائرة بعد دائرة. كان له جسدٌ قوي ويدان تعملان،

فسقطت القدرة في قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾. وكان له مالٌ ومكاسب، فسقطت الحصانة الاقتصادية في قوله: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾. وكان له نسبٌ قريب من النبي ﷺ، فلم تمنحه القرابة حصانةً عقديَّةً أو أخلاقية. وكانت له زوجةٌ تشاركه وتعينه، فلم تتحول الشراكة إلى نجاة، بل صارت مضاعفةً للذنب. وكان له اسمٌ وكنيةٌ ومكانةٌ بين قومه، فانقلبت الكنية نفسها إشارةً إلى النار التي سيصلهاها.

وهكذا لم تترك السورة حصناً من حصونه الوهمية إلا هدمته. اليد لا تنصر، والمال لا يغني، والنسب لا يشفع لمن حارب الحق، والزوجة لا ترد المصير بل تشاركه، والاسم لا يحفظ لصاحبه الصورة التي أرادها. بقي الرجل بعد سقوط هذه الدوائر عارياً إلا من عمله، وهذه هي الحال التي سيقف بها كل إنسانٍ أمام الله؛ فالموت لا ينقلنا بأموالنا وألقابنا، بل يجردنا منها ويأخذنا بما صرنا إليه من خلال استعمالها.

كان يمكن لكل دائرةٍ من هذه الدوائر أن تكون سبب نجاة: اليد تنصر النبي ﷺ، والمال يُبذل في حماية المستضعفين، والقرابة

تتحول إلى مروءةٍ ووفاء، والزواج يصير عوناً على الإيمان، والاسم يُخلد في سجل السابقين إلى الخير. النعم لم تكن شراً في ذاتها، لكن الوجهة قلبتها شواهد إدانة. وهذا من أعمق قوانين السورة: أن النعمة لا تضمن لصاحبها خيراً حتى يحسن توجيهها، وأن أعظم الخسارات قد تنشأ من أعظم العطايا حين تُستخدم في مقاومة غايتها.

اليد نعمة، لكنها تبت حين تمتد إلى الظلم؛ والمال نعمة، لكنه يعجز حين يتحول إلى مصدر استغناء عن الله؛ والقربة نعمة، لكنها تصبح حجةً إذا زادت المعرفة ولم تزد الإيمان؛ والزواج نعمة، لكنه يغدو تحالفاً على الإثم إذا غابت عنه التقوى؛ واللسان نعمة، لكنه يصير حامل حطبٍ إذا نقل الأحقاد. ليست الخسارة أن تقل النعم، بل أن تكثر ثم تقود صاحبها إلى غير الله.

ولذلك فإن سورة المسد لا تقدم صورة فقيرٍ دفعه الحرمان إلى الغضب، بل صورة رجلٍ اجتمعت له أسباب القوة ثم فشل في امتحانها. وهذا يبدد الوهم الذي يربط النجاح الأخلاقي بكثرة الوسائل؛ فقد يملك الإنسان كل ما يعينه على الخير ثم يستخدمه

في الشر، وقد لا يملك إلا قلباً صادقاً فيبلغ به ما لا تبلغه الثروات. لا يقيس الله الإنسان بمقدار ما وضع في يده، بل بالطريقة التي استجاب بها لما وُضع فيها.

حين تصبح النعمة حجة

كان قرب أبي لهب من النبي ﷺ نعمةً معرفيةً عظيمة؛ فقد عرفه قبل النبوة، وخبر صدقه وأمانته، ولم يحتاج إلى قطع الصحارى ليسأل عن سيرته. كان النور قد خرج من بيته الكبير، والحة تمشي أمام عينيه، لكن القرب الذي كان يمكن أن يقوده إلى السبق زاده مسؤوليةً حين اختار العناد. فالنعمة إذا لم تُشكر لا تبقى محايدة؛ قد تتحول إلى حجةٍ على من عرف قدرها ثم جحدها. والناس كثيراً ما يحسدون من عاش قريباً من مواطن الفضل، ويظنون أن القرب المكاني أو الزمني يكفي لصناعة الإيمان؛ لكن سورة المسد تكشف أن القلوب هي التي تقطع المسافة الأخيرة. رأى أبو لهب النبي ﷺ قريباً، ولم يره بقلبه؛ وسمع الدعوة، لكنه لم يسمعها بروج متجردة؛ وعرف صدق الداعي، لكنه لم يحتمل مقتضى الدعوة. إن المعرفة التي لا يصحبها إخلاص قد تتحول إلى

أداةٍ أشد في الخصومة؛ لأن صاحبها يعرف من أين يدخل، وأين يؤلم، وكيف يشوه.

ليس كل من عرف الحقيقة أحبها، وليس كل من أدرك قوة الدليل سلّم له؛ فالعقل لا يعمل في فراغ، بل تحيط به رغبات النفس ومصالحها ومخاوفها. قد يكون الدليل ظاهراً، لكن الاعتراف به يستلزم التواضع، ورد المظالم، وتغيير الموقع، فيفضل الإنسان إنكار ما رأى على دفع ثمن الاستجابة. ومن هنا كان التطهر الأخلاقي شرطاً للانتفاع الكامل بالمعرفة؛ فالقلب المتكبر يستطيع أن يحوّل أوضح البراهين إلى موضوع جدلٍ لا ينتهي.

لقد عاصر أبو لهب نزول السورة، وسمع أو استطاع أن يسمع القرآن يعلن أنه سيصلى ناراً ذات لهب، ثم مضى على موقفه حتى مات عليه. وبقي إصراره تصديقاً للخبر الذي أراد تكذيب صاحبه. كان يستطيع أن يدّعي الإيمان بلسانه طلباً للتشويش، لكنه لم يفعل؛ كأن تكوينه النفسي الذي اختاره طويلاً قد بلغ درجةً لم يعد معها قادراً حتى على تمثيل الخضوع للحق. وهنا يظهر أن

الإنسان، مع بقاء مسؤوليته، قد يضيق باختياراته المتكررة مساحة رجوعه، حتى يصبح الكبر حارساً على باب قلبه.

من القوة إلى القيد

تبدأ السورة باليدين، واليد رمز القدرة على الفعل، وتنتهي بالجل، وهو رمز تقييد القدرة على الحركة. في أولها إنسانان يتحركان لإيذاء الدعوة، وفي آخرها صورةٌ ساكنةٌ للعجز والمهانة. هذه الرحلة من اليد إلى الجل تختصر طبيعة الشر: يبدأ بوعد القوة وينتهي بالقيد، ويغري الإنسان بأنه سيجعله قادراً على فرض إرادته، ثم يسلبه القدرة على السيطرة على نفسه.

المتكبر يظن أنه أقوى لأنه لا يعتذر، لكنه في الحقيقة عاجزٌ عن قول كلمة تحرره؛ والحاقد يظن أن حقه يمنحه طاقةً لمواجهة خصمه، لكنه يصبح مقيداً بذكره؛ والبخيل يظن أن الإمساك يحفظ له ماله، لكنه يصير أسير الخوف عليه؛ والنمام يظن أنه يتحكم في العلاقات بما ينقله، ثم لا يعود قادراً على الحياة في بيئة يسودها السلام. هكذا تعمل الحبال الأخلاقية: لا تظهر فجأةً حول الجيد، بل تبدأ خيطاً داخل الإرادة.

وكان أبو لهب يظن أن يديه قادرتان على إيقاف الدعوة، ولم ير أنه بمدهما إلى الأذى كان ينسج أسباب تباهما. وكانت امرأته تظن أنها تحمل الخطب لتضيق الطريق على النبي ﷺ، ولم تر أن الحبل الذي تجمع به الخطب يتقدم في الصورة القرآنية نحو جيدها. الإنسان القصير النظر يرى أثر فعله في ضحيته، أما الوحي فيريه الأثر العائد إليه؛ يرى الشوكة في قدم المظلوم، ثم يرينا الحبل في عنق الظالم.

وهذا لا يعني أن كل مظلوم ينجو من ألم الدنيا، ولا أن الشر لا يترك فيه جراحاً، لكن الجرح الذي يصنعه الظالم في جسد غيره ليس كل قصة الفعل. هناك جرحٌ أعمق يصنعه في إنسانيته هو، وهناك قيدٌ يلتف حول روحه، وهناك حسابٌ لا يُغلق بسكوت الضحية أو عجز القضاء الأرضي. إن الله لا يترك الألم الإنساني بلا معنى، ولا يسمح للظلم أن تكون له الكلمة الأخيرة.

البيت بوصفه مضاعفاً للوجهة

تكشف السورة أن الزواج لا يخلق الصلاح تلقائياً؛ إنه يضاعف الوجهة التي يختارها الزوجان. إذا اجتمعا على الإيمان

صار كل واحدٍ منهما قوةً تدفع الآخر إلى النجاة، وإذا اجتمعا على الكبر أعطى كل منهما الآخر جرأةً إضافيةً على الباطل. بيت أبي لهب لم يكن خاليًا من التوافق؛ بل كانت فيه درجةً عاليةً من التوافق، لكنها كانت على عداوة الحق، ولذلك صار اتفاقهما جزءًا من المأساة لا حلًّا لها.

كم من بيتٍ يتفاخر أهله بأنهم متفقون، من غير أن يسألوا: على ماذا؟ فالاتفاق قيمةٌ تابعةٌ للغاية؛ وقد يكون الخلاف الصادق الذي يردع ظلمًا أشرف من انسجامٍ كاملٍ على الإثم. ليست الزوجة الصالحة من توافق زوجها في كل شيء، بل من تعينه على طاعة الله وتحجزه عن الظلم، وليس الزوج الرحيم من يزين لزوجته كل رغبة، بل من يحميها من أن تستسلم لأسوأ ما فيها.

لو أن واحدًا من الزوجين في بيت أبي لهب امتلك شجاعة المراجعة، لربما أصبح صوتًا يفتح في الجدار نافذة؛ لكن كلاً منهما قوى جدار الآخر. وهكذا تكشف السورة أثر الدوائر القريبة في المصير: قد يكون الإنسان قريبًا من التوبة، ثم تأتيه كلمةٌ من شخصٍ يحبه فتثبته على الخطأ؛ وقد يكون مندفعًا إلى الظلم، فيجد

في بيته من يقول له: اتق الله، فيتراجع. ليست الكلمات المنزلية صغيرة؛ فكثيرٌ من القرارات الكبرى تنضج في المساحة التي لا يراها الناس.

إن أجمل ما يقدمه الزوجان أحدهما للآخر ليس الراحة وحدها، بل الأمان الأخلاقي؛ أن يعرف كل واحدٍ منهما أن في البيت قلباً لن يبيعه الوهم، ولساناً لن يزين له الباطل، وعيناً ترى سقوطه قبل أن يراه الناس. الحب الذي يكتفي بمواساة الإنسان بعد الخسارة أقل من الحب الذي يمنعه من صناعة الخسارة. والرحمة ليست أن نترك من نحب يسير إلى النار باسم احترام اختياره، بل أن ننصحه بصدقٍ وأدب، ثم لا نكون عوناً له على الإثم.

وتضع السورة كل بيتٍ أمام سؤال: ما الذي نحمله إلى بعضنا؟ هل نعود من العالم بحطب الخصومات، فنملأ به مجالسنا، ونربي عليه أبناءنا، ونجعل الغيبة مادة تسليتنا؟ أم نحمل إلى البيت ماء الرحمة، فنطفىء الغضب، ونحسن الظن، ونعلم النفوس الإنصاف؟

قد يتحدد مصير البيت بنوعية المواد المعنوية التي يدخل بها أفرادها كل مساء.

اقتصاد الحطب وصناعة العداوة

الحطب في السورة ليس شيئاً يُستهلك وحده، بل جزءٌ من دورةٍ كاملة: هناك من يجمعه، ومن يحمله، ونارٌ يُلقى فيها، وغايةٌ يُراد بها الإحراق. وهذه صورة دقيقة لاقتصاد العداوة في المجتمعات؛ فالفتن لا تعيش بموقف شخصٍ واحد، بل بشبكةٍ من الأدوار: أحدهم يَحْتَلِق، وثنان ينقل، وثالث يضخم، ورابع يمول، وخامس يبرر، وجمهورٌ يستهلك الحطب ثم يطلب المزيد.

وقد يبدو بعض المشاركون بعيدين عن الفعل المباشر، لكن السورة تمنح الناقل وصفه المستقل: ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾. من يحمل الوقود إلى النار شريكٌ في بقائها، وإن لم يكن أول من أشعلها. وهذه قاعدة أخلاقية بالغة الأهمية في زمنٍ اتسعت فيه وسائل النقل والنشر؛ فليس كل من ضغط زرّاً بريئاً مما حمله إلى الناس، وليس القول: «أنا ناقل» إعفاءً من السؤال عن الصدق والعدل والأثر.

الخبر الكاذب حطب، ونصف الحقيقة حطب، والعنوان المصنوع لإثارة الغضب حطب، وإعادة نشر الإهانة حطب، والاجتزاء الذي يضع كلام الإنسان في غير سياقه حطب. وقد يحمل المرء الحطب بحجة الدفاع عن قيمة نبيلة، لكن الغاية المعلنة لا تظهر الوسيلة الفاسدة. الحق لا يحتاج إلى الكذب لينتصر، والعدل لا يُخدم بالظلم، والدفاع عن الدين لا يكون بانتهاك ما أمر به الدين من ثبتٍ وإنصاف.

إن حمال الحطب لا يملك مشروعاً إيجابياً مستقلاً؛ يعيش من حرارة النار التي يغذيها، ولذلك يخشى انطفائها. إذا هدأت الخصومة بحث عن كلمة قديمة، وإذا تقارب الناس ذكّرهم بما يفرقهم، وإذا ظهر عذرٌ أخفاه؛ لأن وظيفته الاجتماعية مرتبطة ببقاء الحريق. وهذا لونٌ من الإفلاس الروحي: أن لا يجد الإنسان لنفسه قيمةً إلا في صناعة الأعداء، ولا يشعر بحضوره إلا حين تضطرب القلوب.

أما صاحب الرسالة فيحمل مادةً أخرى؛ يحمل كلمةً تحيي، وعلماً يضيء، ورحمةً تجمع، وبقيناً يثبت. ولهذا كانت المفارقة بين

النبي ﷺ وامرأة أبي لهب مدهشة: هو يحمل وحيًا من السماء، وهي تحمل حطبًا من الأرض؛ هو يفتح للإنسان طريق النجاة، وهي تضع في طريقه الشوك؛ هو يصبر على الأذى ليخرج الناس من النار، وهي تزيد نار العداوة وقودًا. ثم بقي ما حمله النبي نورًا للعالمين، وبقي ما حملته وصفًا لخسارتها.

الزمن المطوي بين الحكم والمصير

في السورة حركة زمنية دقيقة؛ تبدأ بفعلٍ ماضٍ: ﴿تَبَّتْ﴾، ثم تنتقل إلى نفي بصيغة الماضي: ﴿مَا أَغْنَى﴾، ثم تفتح المستقبل: ﴿سَيَصِلَ﴾، ثم تعرض صورةً ثابتةً: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ﴾. كأن الزمن كله قد انطوى أمام علم الله: الهلاك قد تقرر، والمال قد ثبت عجزه، والنار ستُصلى، والجبل حاضرٌ في الصورة الأخيرة.

كان الإنسانان ما يزالان في الدنيا حين نزلت السورة، لكن القرآن لم يخدع بالحاضر الظاهر؛ نظر إليهما من نهاية الطريق. وهذه الرؤية القرآنية تمنح المؤمن قدرةً على مقاومة سطوة اللحظة؛ فلا يظن أن الذي يراه الآن هو الحقيقة كلها. قد يرى يد الباطل

تعمل، لكنه يسمع: ﴿تَبَّتْ﴾؛ ويرى المال كثيراً، لكنه يسمع:
﴿مَا أَغْنَى﴾؛ ويرى صاحبه بعيداً عن العقوبة، لكنه يسمع:
﴿سَيَصَلَّى﴾.

الوحي يعلمنا أن الأشياء قد تكون قد سقطت في ميزان الحقيقة
قبل أن تسقط في ميدان الحس، وأن مشروعاً ما قد يحمل موته
في داخله وهو ما يزال يملأ الدنيا ضحيجاً. ليست الحياة بعد صدور
أسباب الهلاك دليل عافية، كما أن ضعف أهل الحق في مرحلة
من المراحل ليس دليلاً على موت رسالتهم. العين ترى المقطع،
أما خبر الله فيكشف القصة.

ومن هنا يتولد الصبر الواعي؛ لا صبر العاجز الذي يهرب من
الواقع، بل صبر من يعمل وهو يعلم أن النتائج لا تُقاس بساعة أو
جيل. لم يكن النبي ﷺ بحاجة إلى أن يرى أبا لهب ذليلاً في
اللحظة نفسها ليوقن بخسارته؛ كان معه حكم الله، وهو أصدق من
كل صورة عابرة. ومن ثبت على هذا اليقين لم يفتنه تأخر النصر،
ولم يدفعه الألم إلى تقليد أخلاق خصمه؛ لأنه يعلم أن الوسيلة

جزءٌ من المصير، وأنه لا يجوز أن يحمل الخطب باسم مقاومة حمّالي الخطب.

النسب حين يفقد معناه الروحي

في السورة مفارقة مؤلمة بين قرب النسب وبعد المصير. أبو لهب عم النبي ﷺ، لكنه في السورة أبعد الناس عن طريقه؛ والقربة التي كان ينبغي أن تمنحه فرصة مضاعفةً للنصرة صارت شاهداً على عناده. وهنا يحرر القرآن الإيمان من أن يتحول إلى امتياز عائلي أو هويةٍ موروثَةٍ بلا مضمون. يمكن للإنسان أن ينتسب إلى بيتٍ صالح ولا يكون صالحاً، وأن يحفظ أسماء آبائه ولا يحمل قيمهم، وأن يرفع رايةً عظيمةً بينما يفرغها سلوكه من معناها.

ليس الانتساب إلى أهل الخير قليل القيمة؛ فهو نعمةٌ ومسؤولية، لكنه لا يقوم مقام العمل. من وُلد في بيئةٍ إيمانٍ قد قُدمت إليه فرصٌ لم تُقدم لغيره، ولذلك لا يصح أن يجعل النعمة مدعاةً للغرور؛ بل ينبغي أن يراها أمانةً تستوجب الشكر. وإذا تحول الانتساب إلى شعورٍ بالحصانة، فقد يصبح حجاً يمنع صاحبه من رؤية تقصيره.

وقد يكون البعيد عن بيوت الفضل أصدق طلباً له؛ لأنه يأتيه مختاراً بعد بحثٍ وكلفة، بينما يألف القريب النعمة حتى لا يعود يراها. الألفة قد تحجب الجلال؛ يسمع الإنسان القرآن كل يوم فلا يهتز له، ويرى الصالحين من حوله فيتعامل مع فضلهم كجزءٍ عادي من المشهد، بينما يسمع آخراً واحدة فتفتح له حياةً جديدة. ولهذا يحتاج القريب إلى أن يجدد بصره، وأن لا يجعل الاعتياد يسرق منه الدهشة والامتنان.

إن قيمة النسب أن يحمل الإنسان ما فيه من خير، لا أن يستعمله سُلماً للارتفاع على الناس. وإذا خالف المرء قيم من ينتسب إليهم، فقد يصبح انتسابه حجةً عليه؛ لأنه عرف المثال ثم أعرض عنه. وكان أبو لهب قريباً من نبي الرحمة، لكنه اختار القسوة؛ وقريباً من بيت النبوة، لكنه اختار محاربة الوحي؛ فصار قربه الجسدي كاشفاً لعمق بعده الروحي.

المال الذي لا يعبر

تقف الآية الثانية في قلب السورة كجدارٍ حاول أبو لهب أن يقيمه بين عمله ومصيره، لكنه انهار: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا

كَسْبٌ . وقدمت السورة المال على النار لتكشف حدود السلطة المادية؛ فالمال يعمل في عالم الأسباب التي خلقها الله، لكنه لا يتجاوزها إلى تغيير حكم الله. يستطيع أن يشتري وسائل كثيرة، لكنه لا يشتري البراءة؛ وقد يؤخر مواجهةً دينوية، لكنه لا يلغي الحساب.

ومشكلة أبي لهب لم تكن أنه امتلك، بل أنه استمد من الامتلاك وهماً بالاستغناء، وجعل المال في خدمة العداوة. فالمال الذي يمر عبر يدٍ شاكرةٍ يصير رحمة، والذي يمر عبر قلبٍ متكبرٍ قد يصير وقوداً للطغيان. الثروة تكشف ما في النفس وتمنحه قدرةً على الظهور؛ فإن كان في القلب خير وسّعت دوائره، وإن كان فيه شر أعطته أدواتٍ أوسع.

ولا يسأل صاحب المال يوماً عن الرقم وحده، بل عن المعنى الذي صنعه به: أيُّ جائعٍ أطعم؟ وأيُّ كرامةٍ صان؟ وأيُّ باطلٍ مول؟ وأيُّ مظلومٍ أعان؟ فالمال زمنٌ وجهدٌ وقدرةٌ مجمدة، وحين ينفقه الإنسان يحول جزءاً من حياته إلى أثر. إما أن يصنع به أثراً يسبقه إلى الله، وإما أن يتركه خلفه ثم يمضي بحسابه.

ويشمل ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ كل ما ضمه الإنسان إلى دائرة قوته: ولداً، وأتباعاً، وخبرةً، ومكانةً، وسمعة. وهي كلها تقف عند الحد نفسه؛ قد تعين في الدنيا، لكنها لا تغني عن حقيقة العمل. لا يستطيع الكاتب أن يحتمي بعدد قرائه إذا خان الكلمة، ولا العالم بكثرة تلاميذه إذا كتم الحق، ولا القائد بأتباعه إذا قادهم إلى الظلم. كل مكسب لا يصحبه صدقٌ يمكن أن يتحول من وسيلة رفعةٍ إلى شاهد إدانة.

تناسب العمل والجزاء

أبرز ما يطبع السورة أن الجزاء فيها ليس صورةً غريبةً عن العمل، بل يجيء من جنسه: اليد التي صنعت الشر تبت، والمال الذي اعتمد عليه عجز، وأبو لهب يصلى ناراً ذات لهب، وحمالة الحطب صار في جدها الحبل. إن هناك تناظراً بين الدنيا والآخرة يكشف وحدة الميزان؛ فما يزرعه الإنسان هنا لا يختفي، بل يعود إليه في صورةٍ تناسب حقيقته.

وهذا التناسب يجعل الحياة الأخلاقية أكثر وضوحاً؛ فالخير ليس أوامر متفرقة لا صلة بينها وبين مصير الإنسان، والشر ليس

محظوراتٍ اعتباطية، بل لكل منهما أثرٌ في تكوين النفس ونهايتها. حين يأمر الله بالصدق فهو يحرر الإنسان من جبال الكذب، وحين ينهى عن الكبر فهو ينقذه من العمى الذي يمنع صاحبه من الرجوع، وحين يأمر بالرحمة فهو يطهر القلب من نار القسوة. الطاعة ليست عبثاً مفروضاً من خارج معنى الإنسان، بل طريق اكتماله ونجاته.

والجزاء الأخروي حقٌّ يخلقه الله بعدله، وليس مجرد حالةٍ نفسية، لكن التشابه بين العمل والجزاء يدل على الحكمة؛ فالذي عاش يشعل النار بين الناس لا يستوي بمن عاش يطفئها، والذي حمل الحطب لا يستوي بمن حمل الماء، والذي مديده إلى الأذى لا يستوي بمن مدها إلى الرحمة. الآخرة تكشف الفوارق التي ربما حجبها الدنيا، وتعطي كل طريقٍ اسمه الأخير.

الإعجاز في بقاء الحكم

كان أبو لهب يريد أن يصرف الناس عن سماع النبي ﷺ، فانتهى به الأمر داخل السورة التي أراد إسكاتها. وكلما تلا قارئٌ سورة المسد عاد الرجل شاهداً على صدق الرسالة التي حاربها.

أراد أن يجعل قرابته من النبي باباً لإضعافه بين قومه، فإذا بهذه القرابة نفسها تزيد قصته وضوحاً: عمه القريب عجز عن إطفاء الوحي، ومضى الرجل وبقي القرآن.

وهذه من أبلغ مفارقات التاريخ: قد يبذل الإنسان عمره في مقاومة حقيقة، ثم يصبح وجوده نفسه دليلاً عليها. لم يبق أبو لهب بوصفه زعيماً قرشياً، ولا صاحب مالٍ ومجلس، بل بقي شخصاً تبت يداه ولم يُغنِ عنه ما كسب. لقد سقطت الصورة التي صنعها لنفسه، وبقيت الصورة التي كشفها الله.

وليست العبرة أن القرآن انتصر في معركة ذكرٍ فقط، بل أن القيم التي مثلها كل طرفٍ ظهرت عاقبتها؛ حمل النبي ﷺ رسالةً تحرر البشر من عبادة البشر والأشياء، فبلغت الآفاق؛ وحمل أبو لهب عصبية النسب وكبرياء المال، فصار مثلاً في التباب؛ وحملت امرأته حطب الأذى، فصار الجبل في جيدها. لم يكن الخلود للأعلى صوتاً في لحظة، بل للأصدق اتصالاً بالحق.

السورة مرآة لا نافذة فقط

أسهل القراءات أن ننظر من خلال سورة المسد إلى أبي لهب وامرأته، ونقف بعيداً نشاهد هلا كهما؛ وأصعبها وأصدقها أن نجعل السورة مرآة نرى فيها احتمالات النفس. ليس فينا من يسمى أبا لهب، لكن قد يكون في اليد شيء من وظيفته، وفي المال شيء من وهمه، وفي اللسان شيء من حطب امرأته، وفي القلب خيط أول من المسد.

قد لا نحارب النبوة كما حاربها أبو لهب، لكننا قد نرفض حقاً واضحاً لأنه جاء على لسان من لا نحبه؛ وقد لا نلقي الشوك في طريق داعية، لكننا قد ننقل عنه كلمةً مبتورةً تؤذي سمعته؛ وقد لا نملك ثروة قريشية، لكننا نتكئ على ما نملك من علم أو منصب أو جمهور ونظنه يغني عنا. نموذج التباب يتسلل إلى النفس في صور أصغر، والسورة توقظنا قبل أن تجتمع الخيوط.

إن سؤالها الأول: ماذا صنعت يداك؟ وسؤالها الثاني: على ماذا يتكئ قلبك؟ وسؤالها الثالث: إلى أي مصير يقودك طريقك؟ وسؤالها الرابع: ما الذي تحمله إلى العلاقات والقلوب؟ وسؤالها

الخامس: ما الحبل الذي تفتله عادتك حول روحك؟ من أجاب عن هذه الأسئلة بصدقٍ لم يعد قارئاً خارجياً للسورة، بل صار داخل مجال هدايتها.

وقد يكون أول طريق النجاة أن يعترف الإنسان بأن في النفس قابليةً لأبي لهب؛ قابليةً للكبر حين يأتي الحق من قريب، وللحسد حين يكرم الله غيرنا، وللاستناد إلى المال، ولطلب من يؤيد غضبنا، ولحمل الكلام الذي يشعل الخصومات. من أنكر هذه القابلية اطمأن إليها حتى تعمل خفية، ومن عرفها راقب قلبه واستعان بالله عليها.

ليس المؤمن معصوماً من بذور الشر، لكنه متميزٌ باليقظة والتوبة والمجاهدة؛ إذا امتدت يده إلى خطأ ردها، وإذا خدعه ماله تذكر فقره، وإذا اشتعل قلبه أنحمده بالذكر والعدل، وإذا جاءه الخطب رفض حمله، وإذا شعر بالخيطة يلتف قطعه بالاستغفار. النجاة ليست أن لا يمر الخاطر، بل أن لا يتحول إلى قرار؛ وليست أن لا يزل الإنسان، بل أن لا يتخذ زلته طريقاً دائماً.

الصورة المقابلة: يدُ تنفع ومالٌ يغني بإذن الله

لا تكتمل قراءة السورة إذا بقيت كلها في دائرة السلب؛ فكل صورة هلاكٍ فيها تشير إلى صورة نجاةٍ مقابلة. إذا كانت يدُ أبي لهب قد تبت، فهناك يدُ مباركةٌ تمتد إلى الخير؛ وإذا كان ماله لم يغني عنه، فهناك مالٌ يقدمه صاحبه لله فيجده محفوظاً؛ وإذا كانت امرأته حملت الخطب، فهناك زوجةٌ تحمل عن بيتها أسباب الفتنة وتعين على البر؛ وإذا كان في جيدها حبلٌ من مسد، فهناك عنقٌ تحرر من عبودية الهوى وخضع لله وحده.

اليد لا يلزم أن تنباب؛ يمكن أن تكتب علماً، وتفتح مصحفاً، وتمسح رأس يтим، وترد ظلماً، وتزرع شجرةً، وتصنع جمالاً، وتغلق باب فتنة. والمال لا يلزم أن يعجز عن صاحبه من كل وجه؛ فهو لا يشتري النجاة، لكنه حين يُنفق بإيمانٍ يصبح عملاً صالحاً من أسباب رحمة الله. والبيت لا يلزم أن يكون ورشة حطب؛ يمكن أن يكون موضعاً تطفأ فيه نيران العالم، ويخرج منه أبناء يحملون الرحمة بدل الكراهية.

حتى الجبل يمكن أن تتبدل دلالاته؛ فبدل جبل المسد الذي يقيد صاحبه، هناك جبل الله الذي يُعْتَصَم به فيجمع القلوب على الهدى. الإنسان لا يستطيع أن يعيش بلا تعلق، لكن السؤال: بما يتعلق؟ قد يتعلق بماله ونسبه وغضبه فيسقط معها، وقد يتعلق بالله فيتحرر من كل ما سواه. وحين يعتصم بالله لا تعود الأشياء التي يملكها آلهةً صغيرةً تتحكم فيه، بل نعماً يضعها حيث يحب الله.

حين ينجو القلب قبل أن تبت اليد

إن السورة تبدأ باليد، لكن إصلاح اليد يبدأ من القلب؛ فاليد لا تمتد وحدها، والمال لا يطغى بذاته، والخطب لا يحمل نفسه. في الداخل قرارٌ يسبق الحركة، وتصورٌ يمنح الفعل معناه. ولذلك فإن الوقاية من التباب ليست مراقبة الجوارح وحدها، بل تطهير المنبع الذي يوجّهها. إذا صح القلب بحثت اليد عن الخير، ورأى المال أمانة، وصار القريب موضع رحمة، وتحول اللسان من حامل حطبٍ إلى حامل سلام.

وكان أصل مأساة أبي لهب أنه لم يحتمل أن يأتي الحق من الجهة التي جاء منها؛ فالكبر شوّه علاقته بالنسب والمال والدعوة.

ولو انكسر في قلبه هذا الحاجز لوجد أمامه طريقاً آخر كاملاً.
وهكذا قد يتوقف مصيرٌ عظيمٌ على موقفٍ داخليٍّ لا يراه الناس:
هل يستطيع الإنسان أن يقول للحق حين يتبين له: سمعنا وأطعنا؟
أم يجعل صورته عن نفسه أعلى عنده من النجاة؟

التواضع هنا ليس خُلُقاً تجميلياً، بل باب معرفة؛ لأن المتكبر قد
يملك المعلومات كلها ولا ينتفع بها، بينما يفتح المتواضع قلبه لما
لم يكن يعرف. ومن أراد أن يصونه الله من مصير أبي لهب
فليحذر من اللحظة التي يشعر فيها أن الاعتراف بالحق يهينه؛ فالحق
لا يهين من يخضع له، وإنما يحرره من الوهم الذي كان يهينه وهو
لا يشعر.

خلاصة الهندسة القرآنية

تبدأ سورة المسد بالإنسان وهو يهاجم، وتنتهي به وهو مقيد؛
تبدأ بما يظنه قوة، وتنتهي بما يكشف عجزه؛ تبدأ بيدين خارجيتين
وتنتهي بجبلٍ ملازمٍ للجيد؛ وبين البداية والنهاية تسقط الأشياء التي
ظنها صاحبها قادرةً على تغيير مصيره. إنها هندسة هبوطٍ متدرج،
لا تترك في النهاية إلا العدل الإلهي وحقيقة العمل.

في الآية الأولى يسقط الفعل وصاحبه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾. وفي الثانية تسقط الحصانة: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾. وفي الثالثة ينكشف المصير: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾. وفي الرابعة تظهر الشراكة التي غدّت الشر: ﴿وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْخَطَبِ﴾. وفي الخامسة ينغلق المشهد على القيد: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾.

اليَد، والمال، والنار، والخطب، والحبل: خمس صورٍ تبدو من عالم الحس، لكنها تحمل وراءها بناءً فكرياً كاملاً عن المسؤولية والاعتراض والتعاون والمصير. اليد تمثل القدرة، والمال يمثل الحصانة، والنار تمثل الجزاء، والخطب يمثل الإعانة المستمرة على الشر، والحبل يمثل القيد الذي يعود على صاحبه. وفي كل انتقالٍ تنزع السورة عن الإنسان طبقةً من أوهامه حتى تقفه أمام الحقيقة.

وهذه هي قوة سورة المسد: لا تحتاج إلى جدلٍ فلسفي طويل لتقول إن الإنسان مسؤول، وإن المال محدود، وإن النسب لا ينجي، وإن الزواج يمكن أن يكون طريقاً إلى الجنة أو النار، وإن

الكلمة المنقولة فعل، وإن الجزاء حق. إنها تجعل الأفكار أجساداً
وصوراً: المسؤولية يدان، والاعتزاز مال، والعداوة لهب،
والتحريض حطب، والمصير حبل.

وبعد هذه الرحلة لا يعود أبو لهب اسماً بعيداً في تاريخ مكة، بل
سؤالاً قريباً في ضمير القارئ؛ ولا تعود امرأته شخصيةً مضت، بل
تحذيراً من وظيفةٍ يمكن أن تتكرر بأدوات جديدة. وكلما قرأنا
السورة ينبغي أن نسمع وراء حكمها نداء النجاة: لا تمد يدك إلى
ما يقطعها عن الخير، ولا تجعل مالك إلهاً، ولا تدخل بيتك
بحطب الفتنة، ولا تترك خيط الكبر يلتف حول قلبك، ولا
تخدعك زينةٌ ستسقط عند أول لحظة انكشاف.

إن الباب ليس قدراً محتوماً على كل من أخطأ؛ باب التوبة
مفتوحٌ ما دام الإنسان حياً، والحبل يمكن أن يُقطع قبل أن
يشتد، والحطب يمكن أن يُلقى بعيداً عن النار، واليد يمكن أن
تعود من الأذى إلى الإحسان، والمال يمكن أن يتحول من حجابٍ
إلى قربى. لكن الشرط أن لا يجعل المرء كبريائه أغلى من
رجوعه، وأن لا يؤجل يقظته حتى يصير المستقبل الذي أُنذره الله
به حاضراً لا يملك دفعه.

وهنا تنهياً الروح للخاتمة؛ لا خاتمة الحكاية عن أبي لهب وحده، بل خاتمة الرحلة في سورةٍ كشفت كيف يهلك الإنسان بما ظنه أسباب نجاته، وكيف تنقلب النعم على صاحبها حين يعادي بها الحق، وكيف يستطيع المؤمن أن يقرأ الوعيد رحمةً تدعوه إلى مراجعة يديه وقلبه وماله وبيته ولسانه قبل أن تُقتل الخيوط ويُغلق الطريق.

الخاتمة

قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ الْخَيْطُ حَبْلًا

تنتهي سورة المسد، ولا ينتهي لهيب أسئلتها في القلب؛ فما أسرع أن يفرغ اللسان من آياتها الخمس، وما أبطأ أن يفرغ الضمير من معانيها إذا قرأها قراءة المستبصر الذي لا يكتفي بالنظر إلى أبي لهب وامراته، بل يعود من قصتهما إلى نفسه، ويفتش في يديه وماله ولسانه وبيته وعلاقاته عن الخيوط الأولى التي قد تُقتل - إن تُركت - حبلاً من مسد.

ليست هذه السورة مساحةً للتشفي من رجلٍ هلك وامرأةٍ مضت، بل صيحة إنقاذٍ للأحياء؛ فالقرآن لا يخلد مصير الهالكين لكي يجد القارئ لذةً في إدانتهم، وإنما يكشف طرق الهلاك حتى لا يسلكها. وإذا خرج الإنسان من السورة وهو لا يرى فيها إلا أبا لهب، فقد أبعد مراتها عن وجهه؛ أما إذا سأل: ما الذي يمكن

أن يصنع فيّ أبا لهب صغيراً؟ وأين أحمل الخطب من غير أن أشعر؟ فقد بدأت السورة تؤدي وظيفتها في تطهيره.

لقد كان أبو لهب قريباً من النبي ﷺ بعيداً عن هديه، وعرف صدقه ثم اختار مقاومة الحق الذي جاء به؛ فلم تنفعه القرابة، لأن الأنساب لا تحمل القلوب إلى الله، ولم ينفعه المال، لأن الأشياء لا تشتري للروح براءة لم تعمل لها، ولم تنفعه المكانة، لأن ألقاب الأرض تتوقف عند حدود القبر، ولم تنفعه الزوجة، لأنها لم تكن يداً تنتشله من العناد، بل كانت تحمل إلى ناره مزيداً من الخطب.

هكذا سقط الرجل بما توهم أنه أسباب قوته؛ فليس الهلاك دائماً نتيجة فقدان النعم، بل قد يكون نتيجة إساءة استعمالها. اليد التي كان يمكن أن تحمي تبت لأنها آذت، والمال الذي كان يمكن أن يكون صدقةً وقربى عجز لأنه صار موضع استغناء، والقرابة التي كان يمكن أن تكون نصرةً تحولت إلى حجة، والزواج الذي كان يمكن أن يكون سكناً صار تحالفاً على الإثم، واللسان الذي كان يمكن أن يحمل الرحمة حمل الخطب.

إن النعمة لا تحمل قيمتها في ذاتها، بل في الوجهة التي يختارها صاحبها. قد تكون اليد نفسها باباً إلى جنةٍ أو طريقاً إلى تباب، ويكون المال نفسه رحمةً في بيت فقير أو وقوداً في مشروع ظلم، وتكون الكلمة نفسها ماءً يطفى الفتنة أو حطباً يشعلها. وما يحدد المصير ليس مقدار ما نملك، بل حقيقة ما نصنع بما نملك.

لقد بدأت السورة بيدين تتحركان، وانتهت بجبلٍ يقيد الحركة؛ وبين البداية والنهاية قصة الإنسان حين يظن أن الشر يمنحه قوة. كل معصيةٍ تعد صاحبها بحريةٍ عاجلة، ثم تأخذ من حرته شيئاً؛ يبدأ الكبر خاطراً يرفع الرأس، وينتهي حبلاً يمنع صاحبه من الانحناء للحق، وتبدأ العداوة موقفاً يظن الإنسان أنه يسيطر عليه، ثم تصبح عالمه المغلق الذي لا يبصر خارجه، ويبدأ المال وسيلةً في اليد، ثم يتحول إلى سيدٍ في القلب يخاف صاحبه أن يفارقه أكثر مما يخاف أن يفارق رضا الله.

ولم تُقتل حبال الهلاك دفعةً واحدة؛ فالإنسان ينسجها خيطاً خيطاً. كلمةٌ لا يراجعها، وحسدٌ يغذيه، وظلمٌ يبرره، وشائعةٌ ينقلها، وموقفٌ يكابر فيه، وحقٌّ يظهر له ثم يرفضه كي لا يعترف بخطئه. تبدو الخيوط الأولى ضعيفة، ويستطيع أن يقطعها

باستغفارٍ واعتذارٍ وتوبة، لكنه يؤجل؛ ثم يلتف الخيط على الخيط حتى تصبح العادة طبعاً، ويصبح الفعل هوية، ويغدو الرجوع في وهمه أشدَّ من الهلاك.

ومن رحمة الله أن سورة المسد تصل إلى القلب قبل أن يصل الحبل إلى الجيد؛ تحذره في زمن الإمكان، وتريه النهاية وهو ما يزال قادراً على تغيير الطريق. اليد التي امتدت إلى الأذى تستطيع أن تعود إلى الإحسان، والمال الذي حُبس يستطيع أن يجري في حقه، واللسان الذي حمل الخطب يستطيع أن يحمل السلام، والبيت الذي دخلته نار الخصومة يستطيع أن يفتح أبوابه للتوبة والرحمة. ما دام القلب حياً فإن الخيط يمكن أن يُقطع، والخطب يمكن أن يُلقى بعيداً، والنار يمكن أن تُطفأ قبل أن تلتهم العمر.

لكن النجاة تحتاج إلى شجاعةٍ لا تقل عن شجاعة مواجهة العدو: شجاعة مواجهة النفس. كان يمكن لأبي هلب أن ينجو بكلمة إيمان، لكن الكبر جعل هذه الكلمة أثقل عليه من كل مصير؛ فالإنسان قد يحتمل خسارة المال والمكانة، ولا يحتمل أن يقول: كنت مخطئاً. وهنا يتجلى أخطر ما في الكبر: لا يكتفي بأن يوقع صاحبه في الخطأ، بل يمنعه من استعمال باب الخروج.

أما التواضع فليس ضعفاً ولا انكساراً مهيناً، بل قدرةٌ على الانعتاق من الصورة التي صنعها الإنسان لنفسه. المتواضع يستطيع أن يرى الحق وإن جاء من خصم، وأن يعتذر وإن كان ذا مكانة، وأن يعود وإن قطع في الطريق شوطاً طويلاً؛ لأنه لا يجعل صورته أمام الناس أغلى من حقيقته عند الله. ومن خضع لله لم يطوّق جيده بجبل المكبرة، بل تحرر من الحاجة إلى أن ينتصر لنفسه في كل موضع.

وتكشف السورة أن البيت ليس محايداً في رحلة المصير؛ فكل واحدٍ منا يحمل إلى من يحب شيئاً: إما ماءً يطفى ناره، وإما حطباً يزيدّها. قد يكون أعظم الوفاء أن نقول للقريب كلمة لا يحب سماعها لكنها تنقذه، وقد تكون أعظم الخيانة أن نصفق له وهو يظلم لأننا نريد الاحتفاظ برضاه. لم تنفع امرأة أبي لهب زوجها حين شاركته، ولم ينفعها حين تركها تحمل الحطب؛ لقد أعان كل واحدٍ منهما الآخر على أسوأ ما فيه، فاجتمعا في الطريق كما اجتمعا في الوعيد.

فليكن البيت مكاناً تُرد فيه النفوس إلى الحق، لا مكاناً تُصنع فيه أعذار الباطل؛ ولتكن المودة عوناً على النجاة، لا ستاراً

للتواطؤ؛ وليكن الزوجان مرأتين صادقيتين، لا مرأتين تجمل كل واحدةٍ منهما للأخرى قبحها. الحب الذي لا يردع عن الظلم قد يكون تعلقاً، لكنه ليس رحمة؛ والنصرة التي تدفع صاحبها نحو الهلاك خذلانٌ متكررٌ في ثوب الوفاء.

وتقف ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ تحذيراً لكل لسانٍ ويدٍ ووسيلةٍ تحمل الكلام بين الناس. كم من نارٍ بدأت بكلمةٍ كان يستطيع ناقلها أن يدفنها! وكم من علاقةٍ تهدمت لأن إنساناً وجد في حمل الكلام لذةً أو دوراً أو شعوراً بالأهمية! ليس حمل الخطب مقصوراً على الشوك؛ فكل كذبةٍ حطب، وكل خبرٍ يُنقل بلا ثبوت حطب، وكل حقيقةٍ تُجتزأ بقصد التشويه حطب، وكل سخريةٍ تحشد القلوب على إنسانٍ حطب.

ويستطيع المرء أن يكون آخر محطةٍ يصل إليها الخطب؛ تصله الكلمة فلا يحملها، ويسمع الغيبة فيردها، ويرى الفتنة فيطفئها، ويملك القدرة على التشهير فيختار الستر والعدل. ما أعظم تلك الحرائق التي لم تقع لأن قلباً خاف الله، وما أعظم الكلمات التي ماتت عند ألسنةٍ طاهرة فلم تصل إلى القلوب التي كانت ستؤذيها.

ليست البطولة دائماً في الكلمة التي نقولها؛ قد تكون في الكلمة التي نملك نشرها ثم نمنعها رحمةً وعدلاً.

وحين قالت السورة: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ لم تدعُ الإنسان إلى هجر الدنيا، بل إلى تحرير قلبه من وهمها. المال أداة نافعة، لكنه لا يعرف الطريق إلى الآخرة إلا إذا حمله العمل الصالح؛ والاسم قد يلعب، لكنه لا يضيء القبر؛ والأبناء امتداد في الأرض، لكنهم لا يحملون عن أبيهم قلبه ولا اختياره؛ والجمهور يمنح صاحبه صوتاً، لكنه لا يمنحه حقاً؛ والكتب تحفظ كلمات المؤلف، لكنها لا تنجي إن خالف بقلبه ما يعلم.

ما يغني عن الإنسان - برحمة الله - ليس ما جمعه حوله، بل ما قدّمه بين يديه؛ ليس المال الذي أبقاه، بل الخير الذي حوّل إليه؛ ليس عدد من عرفوا اسمه، بل صدقه مع الله حين لا يراه أحد؛ ليس ما قاله الناس عنه، بل ما يعلمه الله منه. وعند الموت تنفصل الممتلكات عن مالكها، وتبقى الأخلاق التي صنعتها فيه: يترك المال، ويحمل حسابه؛ يترك المجلس، ويحمل ما قاله فيه؛ يترك البيت، ويحمل ما زرعه في نفوس أهله.

وسورة المسد إعلان أن العدل لا يضيع لمجرد أن الظالم بدا قوياً؛ فقد عاش أبو لهب حيناً بعد نزولها، وظلت يداه تتحركان وماله حاضراً، لكن حكم الله كان قد كشف الحقيقة: ﴿تَبَّتْ﴾. قد يبقى الباطل قائماً في العين بعد أن يكون قد سقط في الميزان، وقد يملأ الدنيا ضجيجاً بينما تكون أسباب فئائه قد اكتملت. المؤمن لا يخدعه طول الإمهال، ولا يظن أن غياب العقوبة العاجلة دليل نجاة؛ فالله لا يغفل، والآخرة ليست احتمالاً يُضاف إلى الحياة، بل هي الموعد الذي تنكشف فيه حقيقة الحياة كلها.

لكن هذا اليقين لا يصنع في المؤمن شماتةً ولا قسوة؛ بل يجعله أشد خوفاً على نفسه، وأكثر رحمةً بالناس، وأصدق دعوةً إلى النجاة. لم يرسل النبي ﷺ ليقود الناس إلى النار، بل ليخرجهم منها، ولم يكن إنذاره تشفيماً، بل رحمةً تبذل نفسها لمن يؤذيها. ومن قرأ الوعيد ثم استعلى على الخلق لم يفهمه؛ لأن أول ثماره أن يسقط من النفس غرورها، وأن تعلم أنها لا تنجو بقوتها، بل بفضل الله وهدايته.

لقد حاول أبو لهب أن يطفىء النور، فانطفأ هو وبقي النور؛ وحملت امرأته الحطب لتؤدي طريق الرسالة، فمضت وبقي الطريق ممتداً إلى العالمين. بقي القرآن يُتلى، وبقي محمد ﷺ محبوباً في قلوب المؤمنين، وبقي أبو لهب لا يُذكر إلا بوصفه شاهداً على هزيمة العداوة التي حملها. وهذه واحدة من مفارقات الحق الكبرى: قد يحارب الإنسان حقيقةً حتى يفني عمره، ثم يستخدم الله قصته نفسها في إظهار الحقيقة التي حاربها.

أراد أبو لهب أن يقول للناس إن الدعوة إلى تباب، فقال الله كلمته، فصار التباب وصفاً ليديه ومصيره. إن الحقيقة لا تتحدد بمن يصفق لها أو يسخر منها؛ قيمتها في اتصالها بالله، وبقاؤها لا يتوقف على رضا أصحاب النفوذ. ربما بدأ الحق وحيداً لا يملك المال ولا الحشود، لكن فيه قوة البقاء؛ وربما أحاط الباطل نفسه بالذهب والرجال، لكن فيه بذرة السقوط. لا يخدعك حجم اليد التي تحارب النور؛ اسأل عن الحقيقة التي تقف وراءها، وعن النهاية التي تحملها في داخلها.

وهكذا تعيد سورة المسد ترتيب صورة القوة: القوي ليس من يستطيع أن يؤذي، بل من يستطيع أن يمنع نفسه من الظلم؛

والغني ليس من كثر ماله، بل من لم يحتج إلى بيع ضميره ليحفظه؛ والعزیز ليس من يرفع جیده كبراً، بل من یخفضه لله فلا يطوقه الهوى؛ والوفی ليس من یعین قریبه على كل ما يريد، بل من یردّه إلى الحق؛ وصاحب الكلمة ليس من یحمل إلى الناس كل ما یسمع، بل من یعرف متى تكون الكلمة نوراً ومتى تصیر حطباً.

یا قارئ سورة المسد، لا تمر یدیک سریعاً؛ انظر ماذا تکتب ان لك. ولا تغتر بما تجمع؛ اسأل ماذا سیعبر معك. ولا تجعل الخصومة تسلبك عدلك؛ فقد تبدأ بكلمة وتنتهي حبلاً. ولا تطلب فی بیتك من یؤیدك دائماً؛ اطلب من یحب نجاتك أكثر من رضاه عنك. ولا تحمل إلى القلوب ما یزیدها اشتعلاً، فرب حطب ألقیته فی نار غیرك عاد رماده على روحك.

وإذا وجدت فی نفسك خیطاً من كبر، فاقطعه قبل أن یقتل؛ وإذا رأیت فی یدك شوكة، فألقها قبل أن تؤذي؛ وإذا حمل إليك أحد حطباً، فلا تمنحه ناراً؛ وإذا خدعك مالك، فتذكر ساعة تقف فیها وحدك؛ وإذا أغراك نسبك أو علمك أو اسمك، فتذكر أن عمّ النبی ﷺ لم یغن عنه قربه حین أبعدہ اختیاره.

تلك هي الرحمة المستترة في وعيد السورة: أن الله أرانا الحبل قبل أن يلتف، والنار قبل أن تُصلى، وعجز المال قبل أن نفارقه، وتباب اليد قبل أن تُطوى الصفائف. لم يتركنا نمضي بلا علامة، بل وضع في خمس آيات خريطة السقوط كاملة، ثم فتح لنا - ما دمنا أحياء - طريقاً آخر: يداً تعمّر، ومالاً يزكو، وبيتاً يتعاون على البر، ولساناً يطفئ الفتنة، وجيداً لا يخني إلا الله.

فتبارك من جعل السورة القصيرة أوسع من سيرة رجلين، وأبقى من المال الذي جمعه، وأقوى من اليد التي آذت، وأشدّ كشفاً من اللهب الذي حملته الكنية؛ وتبارك من أقام في كل آية ميزاناً، وفي كل صورة إنذاراً، وفي كل إنذار رحمة.

وتبقى النجاة كلّها في أن نسمع كلام الله قبل أن نصير خبراً فيه، وأن نرى النهاية قبل أن نبلغها، وأن نعود إليه قبل أن يصير الخيط حبلاً، والخطب ناراً، والاختيار مصيراً لا رجعة منه.